

موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين 1

درسها وحققها ووضع حواشيها
تيسير خلف

وصف فلسطين
أيام الفاطميين

الحسن بن أحمد المهلبي 965م . المقدسي البشاري 985م
ناصر خسرو 1047م . ابن العربي 1093م

وصف فلسطين
أيام الفاطميين

وصف فلسطين أيام الفاطميين

درسها وحققها ووضع حواشيها : تيسير خلف

الناشر : دار كنعان
للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية

دمشق - ص.ب 443 تلفاكس: 2134433 (11 - 963 +)
E-mail 1: said.b@scs-net.org
E-mail 2: kanaanbook@yahoo.com



بالتعاون مع
دائرة الثقافة والإعلام بعجمان

دولة الإمارات العربية المتحدة - تلفاكس: 0097167423189
E-mail 1: mafarag_2005@yahoo.com
E-mail 1: m_harbi3@yahoo.com

الطبعة الأولى : 2010 / عدد النسخ 1000

إخراج: لبنى حمد
التدقيق اللغوي: سامي عبد المجيد
الإشراف العام: سعيد البرغوثي

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها
على صفحة الشبكة التالية:

http://www.darkanaan.com
http://www.neelwafurat.com



رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين

الجزء الأول

وصف فلسطين أيام الفاطميين

الحسن بن أحمد المهلبي
965 م

المقدسي البشاري
985 م

ناصر خسرو
1047 م

ابن العربي
1093 م

درسها وحققها ووضع حواشيها

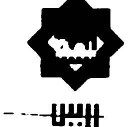
تيسير خلف

صدرت هذه الموسوعة بمناسبة

احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية 2009

بالتعاون مع دائرة الثقافة والإعلام بعجمان / دولة الإمارات العربية المتحدة







لنا كلمة

إن أهم إسهام يمكن أن نقدمه للقدس في احتفاليتها عاصمة للثقافة العربية لعام 2009 هو أن تبقى حية في الأذهان، في وقت يحاول المحتلون الصهاينة محو وجهها العربي والإسلامي، واستبداله بوجه غريب عنها، ولكي تبقى حية في الأذهان بصورتها العربية الإسلامية هي وأخواتها مدن فلسطين المحتلة الأخرى، لابد من تقديم الوجه الحقيقي لها من خلال الكتب والمؤلفات التي تناولتها من وجهة نظر عربية إسلامية.

ولذلك تحمسنا لمشروع موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين، لأننا أدركنا أهمية نشر هذا الأثر، وتعميمه في هذه الاحتفالية، لأنه يسد نقصاً كبيراً في المكتبة العربية، ومن شأنه أن يسهم بشكل مباشر في خدمة قضية القدس وفلسطين، بشكل حضاري يرد على الدعاية الصهيونية بالحجة والمنطق التاريخي.

ولذلك فنحن نرى أن الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية لعام 2009م هو احتفاء بتاريخها وأعلامها، عبر جعل هذا التاريخ في متناول الجميع، لأن من شأن هذا الأمر أن يسهم في تعميق الوعي بضرورة تحريرها من رجس الاحتلال، وإعادتها مدينة عربية إسلامية، تُشد الرحال إليها كما اعتاد أجدادنا أن يفعلوا طوال القرون الخمس عشرة الهجرية الماضية.

والاحتفاء بالقدس يختلف عن الاحتفاء بأي مدينة عربية أخرى، فهو ليس ترفاً أو استعراضاً شكلياً بقدر ما هو ممارسة عملية واجبة على كل عربي ومسلم، والتزاماً فكرياً وإيماناً راسخاً بعروبة هذه المدينة، ولن يتم كل ذلك إلا بتكريس هذه القيم عبر الوسائل الثقافية والمعرفية، ومنها نشر الكتب وإنتاج الأفلام والبرامج والمسلسلات التي تؤكد على الوجه الحقيقي لهذه المدينة التي شهدت أعظم الأحداث في تاريخنا العربي والإسلامي.

دائرة الثقافة والإعلام – حكومة عجمان

هذه الموسوعة

إسهاماً منها في احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية لعام 2009م ارتأت دار كنعان للدراسات والنشر أن تُقدم لقراء العربية موسوعة شاملة لرحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين خلال أكثر من أحد عشر قرناً، شهدت فلسطين خلالها عدداً كبيراً من الرحلات التي قام بها عرب ومسلمون، بعضها تم تحقيقه خلال فترات زمنية مختلفة، ومنها ما بقي حبيس المخطوطات، لم يتيسر لعموم القراء مطالعته.

ولأدب الرحلات أهمية خاصة بالنسبة لفلسطين، فهي الأرض المقدسة التي زارها ملايين الحجاج ونقلوا لأحبتهم أخبار مشاهداتهم لهذه الديار المباركة. غير أن عدداً قليلاً منهم قام بتدوين مشاهداته، التي تمثل الزمن الذي عاش فيه هذا الرحالة أو ذاك، ولذلك فالرحلات وثائق تاريخية وجغرافية، من شأنها أن تعمق الوعي التاريخي وتوسع الآفاق والمعارف والرؤى.

ولقد عرفت فلسطين طوال هذه القرون تطورات وتحولات كثيرة، لم يكن بالإمكان الاطلاع عليها من خلال كتب التاريخ التقليدي المتداولة، نظراً لحصر اهتمام هذه الكتب في أخبار الحروب والتحركات السياسية والعسكرية لهذا القائد أو ذاك، بعيداً عن التاريخ الذي يخص الأرض والبشر، ولذلك نأمل أن نُسهم بقدر الاستطاعة في نفض الغبار عن هذا التاريخ المجهول الذي يميط اللثام عن الكثير من الحقائق الغائبة.

وتكمن أهمية هذه الموسوعة، في أنها تمثل الجانب الآخر من صورة الرحلات التي قام بها الرحالون الغربيون إلى فلسطين خلال قرون طويلة، أسهموا من خلالها في تكوين وعي معين تجاه فلسطين، مستقى بشكل أو بآخر من الوعي الديني المسيحي واليهودي الذي يُمثل فيما يُمثله جانباً واحداً من الصورة، غير أن الأمر بات أكثر خطورة بعد حملة نابليون على فلسطين آخر القرن الثامن عشر، حيث بدا نوع جديد من الرحلات مرتبط بشكل أو بآخر بالمشاريع الاستعمارية التي كانت تُعد في دوائر القوى العظمى، مستهدفة إنشاء وطن قومي لليهود على أرض فلسطين في مغالطة لحقائق التاريخ والجغرافيا والمنطق. ولذلك ساد خلال قرنين من الزمن نوع من الرحلات الاستكشافية إلى فلسطين

وما يحيط بها، أسهم بشكل مباشر في تكوين وعي زائف لتاريخ فلسطين خصوصاً وبلاد الشام بشكل عام، ما نزال نعاني من تبعاته حتى هذه اللحظة، إذ ركزت معظم رحلات الغربيين على إدعاءات كاذبة تحيل على جهل وتخلّف سكان فلسطين من العرب الذين يعيشون في خيام ويمتهنون السرقة والسلب والخروج على القوانين، تاركين هذه الأرض الخصبة معطلة، فكان لابد من إعمار هذه الأرض المقدسة بشعب متحضر يبلغ بها مراقي التقدم، معيداً لها مجدها القديم الذي توقف مع قدوم العرب المسلمين إليها. وهذا هو الوعي الذي سوغ للصهيونية كل جرائمها بحق فلسطين وأهلها حتى يومنا هذا.. فما أحوجنا إذاً لتصويب الصورة، وتوضيح الأمور ووضعها في نصابها، ونقل الجانب الآخر من الصورة الذي تمثله رحلات العرب والمسلمين التي ننشرها في موسوعتنا هذه.

ومن الملاحظ أن الوعي العربي للخطر الصهيوني بدأ بالظهور في مطلع القرن العشرين، والرحلات التي نقدمها خلال هذه الفترة؛ تُبين بشكل واضح وجلي أن الكثير من العرب كانوا على بينة من أبعاد المشروع الاستعماري الصهيوني لفلسطين، ولذلك ظهرت في ذلك الوقت أشكال متعددة لمقاومة هذا المشروع، منها أدب الرحلات الذي كان يهدف إلى تقديم حقيقة الأوضاع وتوعية الناس لما يجري حولهم، وهذا ما تصدى له كلٌّ من نجيب نصار ونجيب عازوري وعارف العارف وبشير كعدان وغيرهم..

موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين، إذاً هي إسهامٌ هامٌ في احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية وهي إسهامٌ نطمح أن نثري به المكتبة العربية، فتكون هذه الموسوعة إضافةً هامةً إلى المراجع الأخرى التي تناولت الحديث عن فلسطين أرضاً وشعباً وتاريخاً عبر العصور الغابرة.

دار كنعان للدراسات والنشر

تمهيد

فلسطين والشام أيام الفاطميين

قامت دولة الخلافة الفاطمية في المغرب العربي، وتوسعت إلى مصر وبلاد الشام والحجاز، ووصلت إلى اليمن، وشكلت خلال فترة زمنية عنصر توازن مع ما يسمى (الإمبراطورية) البيزنطية التي كانت تشهد نوعاً من الانتعاش، تمثل بتركيز الغزوات على بلاد الشام، حتى وصلت إلى سور دمشق وطرابلس وحمص وبعلبك وصور، وكادت أن تصل إلى القدس.

وكانت أوضاع الشام ومصر قبيل قدوم الفاطميين قد وصلت إلى أقصى الحضيض، فالدول التي كانت تتبع شكلياً للعباسيين؛ وصلت إلى مراحل من الضعف والتفكك أغرى الأعداء الخارجيين، من جهة وزعماء العصبيات القبلية من جهة أخرى. وقد وصلت دولة الإخشيديين في مصر وجنوب بلاد الشام إلى طريق مسدودة بعد أن توفي كافور. وتسلم الحكم في دمشق وما حولها أحد العيارين وحمالي التراب ويسمى قسام الحارثي، في حين كانت دولة الحمدانيين في حلب وشمالي بلاد الشام تعاني من التفكك، الذي جعلها هدفاً سهلاً لغزوات البيزنطيين بعد وفاة سيف الدولة.

فوضى عارمة

بعد وفاة كافور الإخشيدي في عام 357 هجرية دبت الفوضى في مصر وجنوب بلاد الشام بما فيها فلسطين، بعد أن اختلف خلفاؤه، فرأى عقلاء مصر أنه لا ينجيها مما هي فيه إلاّ الارتماء في أحضان دولة قوية فتية تنقذها من بلائها. فراسلوا الخلفاء الفاطميين في المغرب، وبلغ المعز الفاطمي اختلاف الأهواء وتفرق الآراء، فجهز عسكره إلى مصر،

فهربت عساكر الإخشيدية من القائد جوهر الصقلي الذي جاء مصر على رأس مائة ألف محارب، وألف وخمسمائة جمل محملة بالذهب والفضة[1].

وجاء في خطبة جوهر الصقلي لأهل مصر، أن دوافع المعز لأخذ مصر هي الدفاع عن البلاد ضد الروم البيزنطيين الذين استطالوا وأطمعتهم أنفسهم بالاقتدار عليها، واستنقاذها من المذلة والخزي وإقامة الحج الذي تعطّل، وتأمين الطريق، وتجديد السكة على عيارها، وقطع الغش، وحسم الظلم، وتخليص مصر من القحط والوباء اللذين نزلا بها[2].

ويرى بعض المؤرخين أن ثمة دوافع أخرى غير هذه دعت الفاطميين للقدوم إلى مصر، وهي الحلول محل العباسيين، والسيطرة على مصبات الطرق التجارية في شرق المتوسط بعد أن طفح الذهب لديهم من التجارة مع منابع الذهب في إفريقيا السوداء والموانئ الإيطالية[3].

وما إن استقرت الأمور بمصر للفاطميين، حتى توجهوا إلى الشام لإحكام سيطرتهم عليها بعد أن دبت الفوضى بها نتيجة سيطرة القرامطة وقبائل البدو. وبعد أن تعاظم خطر البيزنطيين.

وقد بدأت أطماع البيزنطيين تتجه نحو الشرق العربي من أجل السيطرة على أكبر مساحة ممكنة من أراضيه، لضمها إلى دولتهم القوية منذ أواسط القرن الرابع الهجري، وكان ذلك في عهد سيف الدولة الحمداني الذي تصدى لجيوشهم الكثيفة، المجهزة أحسن تجهيز، تحت قيادة أبرع وأقوى قوادهم أمثال، برداس فوكاس، فانتصر عليه وأوقع به شر الهزائم وعمد إلى نقل المعارك إلى أرض الروم، فأخذ يخرج للغزو مرتين أو أكثر، كل عام، في الربيع والصيف، وأحياناً في الشتاء، يحطم القلاع ويقتلع الحصون ويحتل المدن، ويعود بالأسلاب والغنائم والسبايا.

إذلال الشام :

وفي سنة 350هـ،961م، نقل الملك رومانوس، ملك البيزنطيين، إلى حرب المشرق، نقفور فوكاس، و هو شقيق برداس فوكاس فقصد مدينة حلب وحاصرها وخرّب القصر

---

(1) خطط الشام ج 1، ص196.

(2) اتعاظ الحنفا، ج- 1، ص103- 17.

(3) راجع رأي الدكتور شاكر مصطفى في ذلك والذي ورد في أكثر من موضع، مثل دراسته فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي، في القسم الثاني من الموسوعة الفلسطينية

الذي أنشأه سيف الدولة على جبل المشهد، وأحرق المسجد الجامع، وأكثر الأسواق، والدار التي لسيف الدولة، وأكثر دور المدينة، وكان عدد من سبى من الصبيان والصبايا، بضعة عشر ألف صبي وصبية، وأخذهم معه.

أما سيف الدولة فإنه لما رحل الروم عن حلب، عاد إليها ودخلها في ذي الحجة سنة 351هـ،962م. وسار إلى ديار بكر بالبطارقة الذين أسرهم سابقاً، ليفادي بهم، ففدى أبا فراس ابن عمه، وجماعة من أهله، وغلامه بارقطاش، ومن كان بقي من شيوخ الحمصيين والحلبيين[4].

لكن سيف الدولة توفي في سنة 356هـ، 967م، وكان البيزنطيون بقيادة نقفور فوكاس قد احتلوا أنطاكية التي كانت واحدة من أعظم مدن العالم القديم. وظلت في يد البيزنطيين حتى استعادها السلاجقة سنة 1084 م.

وذكر أبو الفرج ابن العبري في حوادث سنة 969، أن نقفور ملك الروم سار إلى طرابلس وأحرق كل ما في ضواحيها من الأبنية، وتوجه إلى غزة واحتوى قلعتها الحصينة، ثم أقبل إلى ما بين حلب وحمص وأقام شهرين يغزو ويسبي دون أن يعارضه أحد .. وكان ينوي التوجه إلى أورشليم لكنه لم يتيسر له ذلك بسبب ما أحاق بجنوده من الوهن والكلال بعدما قتلوا من قتلوا وغنموا ما غنموا مما فاق حد الكثرة. ويضيف ابن العبري القول: وقد اشتهر الملك نقفور في حروبه شهرة واسعة بحيث احتل كل مدن قليقية وأنطاكية وسوريا وهابه العرب كافة[5].

وقد نقل لنا الرحالة الحسن بن أحمد المهلبي وصفاً لإحدى مدن الثغور وهي طرسوس التي فقدها العرب في ذلك الزمن[6]. يقول المهلبي في كتاب المسالك والممالك الذي وضعه للعزيز بالله الفاطمي: (فأما أهل هذه الثغور ومن كان يسكنها وأحوال البلاد ومقاديرها، فإن طرسوس كانت أجلها مدينة وأكثرها أهلاً، وأغصّها أسواقاً، وليس على وجه الأرض مدينة جليلة إلا ولبعض أهلها دار حُبُس عليها حُبُس[7] نفيس وغلمان برسم تيك الدار بأحسن العدة وأكمل الآلة، يقوم بهم الحبس الذي عليهم، وكان أكثر ذلك لأهل

---

[4] زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم ج 1، ص 133.

[5] تاريخ الزمان، لأبي الفرج جمال الدين ابن العبري، دار المشرق ببيروت، ص 66. وللاستزادة حول هذا الموضوع مراجعة ما كتبه ابن العبري بتفصل في الصفحات 59- 66 من المصدر نفسه، حيث يسرد فيها وقائع سقوط مدن ثغور الشام

[6] الكتاب العزيزي، ص 96- 99.

[7] الحُبُس الأوقاف وفي لسان العرب نقلاً عن الليث: الحُبُس جمع الحَبِيس، وهو الفرس يجعل حَبِيساً في سبيل الله يُغزى عليه

بغداد، فإنه كان لهم بها ولغيرهم من وجوه أهل البلدان وذوي اليسار منهم جلة الغلمان، مقيمين عليهم الوقوف السنية، والأرزاق الدارّة، ليس لهم عمل إلا ارتباط فرهة الخيل وتخريجها في الطراد والعمل عليها بسائر السلاح، يعملون ذلك في صدور أيامهم، ويتصرفون في أعجازها إلى منازل فياحة فيها البساتين والمياه الجارية والعيش الرغد. وكان أهل البلد في نفوسهم على هذه الصفة من ركوب الخيل والعمل بالسلاح ليس فيهم من يعجز عن ذلك، ولا يتخلف عنه حتى أن دور المتاجر الدنية والصنائع الوضيعة كانوا يلحقون بالطبقة العليا في الفروسية والشجاعة وارتباط الخيل، وإعداد السلاح. وكانت غزواتهم تتصل، ومن الغنائم والمقاسم لهم معيشة لا تنقطع. فهذه أحوال الثغر ومن فيه، ولم تزل أحواله تجري على الانتظام والرخاء والسلامة والغزو متصل والمعايش رغده، والسبل آمنه ما دام الغزاة إليهم من العراق ومن مصر متصلين، فلما زهد الناس في الخير، وقع بينهم في نفوسهم من التنافس والتحاسد والغل ما وقع، وخاصة بين الغلمان الثملية[8]، وابن الزيات[9]، و[ابن] المعروف بسيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان[10]).

وقد تعاظم الخطر البيزنطي حتى وصل إلى مشارف دمشق، التي تسلم الحكم فيها ترّاب يعتاش بنقل التراب، وقيل عيّار يدعى قسام الحارثي من قرية تلفيتا قرب دمشق. استبد بحكم المدينة وما حولها من أقاليم[11].

صورة مظلمة

هكذا كانت صورة الأوضاع في أقاليم المشرق العربي عند قدوم الفاطميين إليها، ولذلك كان قدومهم بمثابة الأمل الذي انبعث في زمن مظلم حالك لم يمر على البلاد مثله من قبل، ففتحت بعض المدن أبوابها لهم في بلاد الشام[12]، إلا تلك التي استولى عليها

---

[8] الغلمان الثملية نسبة إلى الحصون الثملية التي يذكرها ابن العديم نقلاً عن تاريخ أبي اسحق السقطي صاحب كتاب الرديف، ففي احداث سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة قال: «وفيها وردت الأخبار بإغارة الروم على الحصون الثملية واجتياح بلد الإسلام وهرب بقايا اهل الثغور عن معاقلهم إلى الأقاصي»

[9] ابن الزيات هو صاحب طرسوس الذي قطع الخطبة لسيف الدولة الحمداني، وأعلن عليه العصيان واضطر لمحاربة الدمستق باربعة آلاف مقاتل في سنة 350 هجرية، حسبما يذكر ابن الأثير في تاريخه وعندما انهزم عاد إلى طرسوس فأعاد اهل البلد الخطبة لسيف الدولة، فما كان من ابن الزيات إلا أن ألقى بنفسه في نهر تحت قصره فغرق ومات منتحراً.

[10] بغية الطلب لابن العديم، ج1 ص 178- 180.

[11] خطط دمشق، ج1، ص206- 207

[12] كمثال على ذلك طبرية التي انتقل إليها جعفر ابن فلاح القائد الفاطمي ودخلها دون قتال

زعماء البدو، وتلك التي وقعت تحت حكم القرامطة الذين أعلنوا الحرب والعصيان ضد الخلافة الفاطمية.

وقد استمر فتح فلسطين حتى دمشق سنة كاملة، ولم يكن بدون خسائر كبيرة من الجانبين لكن جعفر بن فلاح أسر في النهاية الحسين بن عبيد الله بن طفج الإخشيدي، وابن غزوان صاحب القرامطة مع اثني عشر رجلاً من كبار القواد، وأرسلهم جميعاً إلى القاهرة[13].

ويرى بعض الباحثين أن الخلاف القرمطي الفاطمي نتج عن أسباب اقتصادية تمثلت بسيطرة الفاطميين على طرق التجارة في المشرق العربي التي كان القرامطة قد استولوا عليها قبل نصف قرن، ولذلك وصل الخلاف بينهم إلى تخلي القرامطة بزعامة الأعسم عن التشيع السبعي، وتسمية أنفسهم بالسادة الراجعين إلى الحق، كناية عن عودتهم إلى التسنن، وقد جاهروا بتأييدهم للخلافة العباسية، وتحالفوا مع أعداء الفاطميين أياً كانوا سواء كانوا البويهيين أو الحمدانيين[14].

لقد كان القرامطة على درجة كبيرة من القوة حتى أنهم هزموا الجيش الفاطمي في إحدى المعارك وقتلوا قائده جعفر بن فلاح ووصلوا فعلاً إلى أسوار القاهرة. قبل أن ينهزموا فيتبعهم جوهر ويعلن عن جائزة مقدارها 300 ألف درهم لمن يأتيه برأس الأعسم، في حين كانت قواته تعيد السيطرة على طبريا ودمشق[15].

العزيز بالله

هذا الكر والفر استمرا طويلاً إلى أن قيض للبلاد خليفة فاطمي عادل ساس البلاد بالحكمة وحاول أن يقودها إلى بر الأمان، وخفف قدر الإمكان من عواقب الفوضى والتناحر السياسي والقبلي، وهو الخليفة العزيز بالله[16]، الذي نجح بالحنكة السياسية والعفو عند المقدرة في وضع حد لخطر القرامطة الذين بدأ انهيارهم التدريجي بعد معركة فاصلة عام 363 هجرية.

---

[13] اتعاظ الحنفا، ج1 ص 114.

[14] شاكر مصطفى، مرجع سابق.

[15] راجع التفاصيل في اتعاظ الحنفا ج1، ص129، ونهاية الأرب للنويري ج 23 ص 95 وما بعدها، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج 8، ص656 وما بعدها

[16] ولد العزيز بالله ابو المنصور نزار ابن المعز لدين الله ابي تميم بالمهدية على الساحل التونسي يوم الخميس الرابع عشر من المحرم سنة اربع واربعين وثلاثمائة وولى العهد بمصر وبويع سنة 365 هجرية

وفي عهد العزيز ظهر قائد بويهي تركي يدعى أفتكين الشرابي فر من بغداد إلى دمشق فطلب منه العامة أن يقيم بينهم ويدافع عنهم، وسرعان ما وجد نفسه بين خطرين، الأول خطر البيزنطيين الذين وصلوا إلى حمص وبعلبك بقيادة الإمبراطور زمسكيس[17] قاصدين استعادة الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين[18]، والثاني خطر الفاطميين الذين تولى خلافتهم العزيز بالله الذي أراد الاستيلاء على دمشق. وقد اكتفى الإمبراطور البيزنطي بفرض جزية على دمشق وانسحب إلى صيدا عن طريق طبريا ثم إلى بيروت.

ولم يزل أفتكين طول مقامه بدمشق يكاتب القرامطة ويكاتبونه بأنهم سائرون إلى الشام إلى أن وافوا دمشق بعد موت المعز الفاطمي. فنزلوا على ظاهر دمشق ومعهم كثير من العجم أصحاب أفتكين، الذين تشتتوا في البلاد وقت وقعته مع الديلم لقوهم بالكوفة في الموقعات، فأركبوهم الإبل وساروا بهم إلى دمشق، فكساهم أفتكين وأركبهم جبل قاسيون فقوى عسكره بهم، وتلقى أفتكين القرامطة وحمل إليهم وأكرمهم وفرح بهم وأمن من الخوف، فأقاموا على دمشق أياماً ثم ساروا إلى الرملة وبها أبو محمود إبراهيم بن جعفر، فالتجأ إلى يافا ونزل القرامطة الرملة ونصبوا القتال وجبى القرامطة المال، فأمن أفتكين من مصر وظن أن القرامطة قد كفوه ذلك الوجه وعمل على أخذ الساحل، فسار بمن اجتمع إليه ونزل على صيدا وبها ابن الشيخ ورؤساء المغاربة (الفاطميين) ومعهم ظالم بن موهوب العقيلي فقاتلوه قتالاً شديداً، فانهزم عنهم أميالا فخرجوا إليه فواقعهم وهزمهم وقتل منهم، وصار ظالم إلى صور، فيقال إنه قتل يومئذ أربعة آلاف من عساكر المغاربة (الفاطميين) قطعت أيمانهم وحملت إلى دمشق فطيف بها.

ونزل أفتكين على عكا وبها جَمعٌ من المغاربة (الفاطميين) فقاتلوه فسيَّر العزيز القائد جوهر بخزائن السلاح والأموال إلى بلاد الشام في عسكر عظيم لم يخرج قبله مثله إلى الشام من كثرة الكراع والسلاح والمال والرجال، بلغت عدتهم عشرين ألفاً بين فارس وراجل، فبلغ ذلك أفتكين وهو على عكا والقرامطة بالرملة. فسار أفتكين من عكا ونزل طبرية وخرج القرامطة من الرملة ونزلها جوهر.

ودامت الحرب شهرين قتل فيها الكثير من الجانبين، وكانت الحرب سجالاً بين الجانبين إلى أن انهزم جوهر إلى مصر وأخبر العزيز بالوقائع بينه وبين أفتكين ومن معه

---

[17] يسمى في المصادر العربية ابن الشمشقيق

[18] راجع ابن القلانسي ص 24، والأنطاكي ص 161- 162.

من القرامطة. وحدثه عن تخاذل قبيلة كتامة فغضب غضبا شديداً، وعذر جوهر في باطنه وأظهر التنكير له وعزله عن الوزارة، وولى يعقوب بن كلس عوضه.

واضطر الخليفة العزيز إلى الخروج للقاء أفتكين والأعسم فضربت له خيمة ديباج رومي عليها صفرية فضة فخرج إليه أهل البلد كلهم حتى غلقت الأبواب، وسألوه في التوقف عن السفر فقال: إنما أخرج للذب عنكم وما أريد ازدياداً في مال ولا رجال، وصرفهم.

وسار العزيز ومعه حسان بن علي بن مفرج بن دغفل بن الجراح الطائي، فهزم أفتكين والأعسم، ولكن العزيز أعجب بأفتكين فلما جيء به أسيراً أكرمه وعفا عنه، أما الأعسم فقد أرضاه العزيز بمبلغ سنوي قدره ثلاثين ألف دينار على أن يكف أذاه عن البلاد، وبذلك لم يعد الأعسم بعدها إلى القتال إلى أن قضى على قوته العسكرية صمصام الدولة البويهي في الإحساء حوالي عام 375 هجرية[19].

وكتب أبو إسماعيل الرسي إلى العزيز يقول: يا مولانا: لقد استحق هذا الكافر (أفتكين) كل عذاب والعجب من الإحسان إليه، فلم يرد عليه جوابا.

قال المسبحي: فخرج الناس إلى لقائه وفيهم أبو إسماعيل الرسي فلما رآه العزيز قال: يا إبراهيم: قرأت كتابك في أمر أفتكين وفيما ذكرته وأنا أخبرك: اعلم أنا وعدناه الإحسان والولاية فما قبل، وجاء إلينا فنصب فازاته وخيامه حذاءنا وأردنا منه الانصراف فلج وقاتل، فلما ولى منهزماً وسرت إلى فازاته ودخلتها سجدت لله الكريم شكراً وسألته أن يفتح لي بالظفر به، فجيء به بعد ساعة أسيراً ترى يليق بي غير الوفاء!.

ودخل العزيز إلى القاهرة ومعه أفتكين والأسرى وعليه تاج مرصع بالجوهر فأنزل أفتكين في دار وأوصله بالعطاء والخلع حتى قال: لقد احتشمت من ركوبي مع مولانا العزيز بالله ونظري إليه مما غمرني من فضله وإحسانه، فلما بلغ العزيز ذلك قال لعمه حيدرة: يا عم: أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهرة ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندي[20].

واستمرت الأوضاع مضطربة في الشام بين الحكام المتنافسين والزعماء الطامعين بالملك، من بني عقيل وبني الجراح والحمدانيين وغيرهم، ولم تستقم الأمور لعدة سنوات، إلى أن مات سعد الدولة الحمداني فرأى العزيز أن الوقت قد حان لأخذ الشام كلها

---

[19] راجع تفاصيل حركة افتكين في ابن القلانسي ص33- 35، والأنطاكي ص 181- 182.

[20] تفاصيل ذلك في اتعاظ الحنفا ج 1، ص238- 243، وابن القلانسي ص 15- 21.

وانقاذها من أوضاعها الكارثية، فسيّر جيشاً كثيفاً إلى حلب أنفق عليه مليون دينار، وعليه القائد منجوتكين، وهزم الحمدانيون في الوقعة قرب أفامية وذلك في عام 382 هجرية، ما دعا أبو الفضائل الحمداني إلى الاستنجاد بالملك البيزنطي باسيل، لكن جيوش الفاطميين انتصرت وقتل من البيزنطيين عشرة آلاف حملت رؤوسهم إلى القاهرة.

ولكن المعارك استمرت دولة أكثر من عام في جميع المدن السورية في الشمال والساحل، إلى أن أنهك الجيش الفاطمي وتحطم أسطوله في عرض البحر مرتين بفعل العوامل الطبيعية.

واستن بعض القادة والمستولين على السلطة في مدن الشام سنّة جديدة تتمثل بالاستنجاد بالبيزنطيين كلما طالبتهم السلطة الفاطمية بالتزامات معينة. وكمثال على ذلك بحار في صور يدعى (عُلاقة) استنجد بالبيزنطيين الذين انجدوه لكن أسطول الفاطميين هزمهم.

كما جرت وقعة أخرى بين البيزنطيين والفاطميين بقيادة جيش بن الصمصامة قرب نهر العاصي عند مدينة أفامية كان النصر فيها للفاطميين، الذين حمل جيشهم عشرون ألف رأس وألف أسير إلى القاهرة.

وكان العزيز على رأس حملة برية إلى الشام حين وافاه الأجل بعد أن أصابه مرض القولنج والحصاة، وكان قصده غزو البيزنطيين وتعزيز السيطرة على حلب. وكانت مدة العزيز في الخلافة بعد أبيه المعز إحدى وعشرون سنة وخمسة أشهر ونصف ومات وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً[21].

وعرف عن العزيز حبه للعلم وتقريبه للعلماء وقد ذكر المقريزي أنه ذكر عند العزيز كتاب العين في اللغة فأخرج منه نيفا وثلاثين نسخة من خزانته منها واحد بخط الخليل بن أحمد مؤلفها.

وحملت إليه نسخة من تاريخ الطبري اشتراها بمائة دينار فأمر الخزان فأخرجوا من خزائنه عشرين نسخة منها نسخة بخط محمد بن جرير جامعه. وذكرت عنده جمهرة ابن دريد فأخرج منها مائة نسخة. وقد وضع الحسن بن أحمد المهلبي كتابه المسالك والممالك الذي سنتناوله في متن الكتاب، للعزيز بالله الفاطمي، بناء على طلبه، كما تشير بعض المصادر إلى أن الرحالة المقدسي البشاري أهدى كتابه (أحسن التقاسيم) الذي سنتناوله في أحد فصول الكتاب للعزيز بالله أيضاً.

---

[21] الأنطاكي ص 234- 235 واتعاظ الحنفا ج 1، ص 291

وقد ساد الطابع الديني للحرب بين البيزنطيين والفاطميين طوال فترة حكم الحاكم بأمر الله، الذي كان ينتقم من نصارى البلاد وكنائسهم كلما اختلف مع القسطنطينية. وقد وصل الأمر به أن أمر عام 400 هـ، 1009م، بهدم كنيسة القيامة في القدس، وبقية الكنائس الملكية التابعة لبيزنطة، وترك الأمر على الغارب للعامة، الذين اعتدوا على كنائس أخرى كثيرة، وألزم المسيحيين واليهود بألبسة وعلامات معينة، ما أضطر الكثير من العرب المسيحيين للنزوح إلى بلاد الروم. وقد حدثت في زمنه نزوحات كبرى من مدن الشرق المسيحية، وقدم إلى الشام مسلمون فارون من البيزنطيين[22].

وفي زمنه أيضاً اشتدت الخلافات بين الخلافة الفاطمية وزعماء البدو الذي اتفقوا عام 415 هـ، 1024م، على تقاسم البلاد فيما بينهم فحلب لبني مرداس الكلابيين، ودمشق لبني كلب، وفلسطين لبني الجراح الطائيين. وعانى الخليفة الظاهر كثيراً منهم قبل أن تستعيد قواته السيطرة على الشام في عام 420 هـ، 1029م، بعد قتل صالح بن مرداس.

ويذكر ابن سعيد الأنطاكي أن كنيسة القيامة كانت ورقة تفاوض بين ابن الجراح وستُ المُلك الفاطمية التي كانت وصية على خلافة ابن أخيها الظاهر من جهة، وبين إمبراطور الروم باسيل، كما استخدمت من قبل الظاهر نفسه مع قسطنطين الثامن الذي خلف باسيل سنة 418هـ، 1027م. فكان هؤلاء يعرضون تجديد كنيسة القيامة ببيت المقدس وسائر بيع الشام ومصر ورد أوقافها إليها، مقابل إطلاق حرية التجارة إلى بلادهم من بلاد الروم وقبول من يرد إلى بلاد الإسلام من الروم[23].

ولم يُقَيَّضْ لفلسطين وبلاد الشام الاستقرار إلا في عام 420 هـ، 1029م، عندما تسلم ولاية الشام أنوشتكين الدزبري، فضبطها. وكان سبب ذلك تدرجه في خدمة بعض القواد الفاطميين في بلاد الشام، وانتصاره على الحلف البدوي الثلاثي في معركة الأقحوانة جنوبي طبريا، فاستقرت الأمور بشكل كامل على يديه مدة ست عشرة سنة.

وقد أضحت فلسطين ولاية داخلية، لا ولاية مجابهة، وعرفت الاستقرار، وخلال هذه الفترة زار الرحالة الفارسي ناصر خسرو فلسطين وكتب عنها في رحلته الشهيرة (سفرنامة) التي سنتناولها في هذا الكتاب. كما زارها الرحالة الأندلسي أبو بكر ابن العربي، الذي أتحفنا بنص فريد عن المحاورات الفكرية الفقهية المفتوحة التي كانت تتم في بيت المقدس أواخر العصر الفاطمي، وعشية احتلاله من قبل الفرنجة الصليبيين.

---

[22] راجع الأنطاكي ص 305 وما بعدها. احسن التقاسيم ص 160. المرجع في الجولان ص 296- 297

[23] شاكر مصطفى، مرجع سابق ص 357 وابن سعيد الأنطاكي ص 243

لقد قدمت لنا الحقبة الفاطمية إذن أربعة نصوص مهمة هي موضوع كتابنا هذا عن وصف فلسطين، تعتبر من النصوص الأهم التي كتبت منذ الفتح العربي الإسلامي، والسبب في ذلك أن العباسيين أهملوا الشام إهمالاً كبيراً بسبب عدائهم للأمويين، وقد توجهت أنظارهم نحو الشرق، فكتبت في عهدهم أهم النصوص وأشهر الرحلات إلى الهند والسند والصين وبلاد ما وراء النهر، وبلاد الصقالبة والبلغار وبقية شعوب الشمال.

تيسير خلف

دمشق في 20 كانون الأول عام 2008م

وصف بيت المقدس وفلسطين في الكتاب العزيزي

للحسن بن أحمد المهلبي

من أبرز الرحالة والمصنفين الذي كتبوا عن فلسطين وبيت المقدس خلال الحقبة الفاطمية الحسن بن أحمد المهلبي، صاحب أحد أهم المراجع في علم (المسالك والممالك). ففيه أشار إلى بعض الملامح الجغرافية والطبوغرافية عن فلسطين، وقدم وصفاً نادراً لبيت المقدس، ذكر فيه أشياء لم يذكرها غيره.

صنف المهلبي، كتابه هذا للعزيز بالله الفاطمي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ولذلك سمي بالكتاب (العزيزي)، وقد حظي هذا المصنَّف المهم بعناية واهتمام الكثير من المؤلفين العرب المسلمين الذين أتوا بعده، فوصفه ابن العديم مؤلف (بغية الطلب في تاريخ حلب) والمتوفى سنة 660 هـ، 1262م، بأنه (كتاب حسن في فنه، يوجد فيه مما لا يوجد في غيره من أخبار البلاد وفتوحها وخواصها).

وقد نقل ابن العديم عن المهلبي مقاطع مهمة تتعلق بحلب والثغور الشمالية قبل سقوطها نهائياً في يد البيزنطيين أواسط القرن الرابع الهجري.

كما نقل ياقوت الحموي في (معجم البلدان) عن كتاب المهلبي أكثر من 53 مرة، ونقل عنه أبو الفداء في تقويم البلدان 210 مرات.

وعلى الرغم من ذلك سكتت كتب التراجم العربية عن هذا المؤلف الفذ، ولم يذكره ابن خلكان في (وفيات الأعيان)، ولا الذهبي في (سير أعلام النبلاء) ولا الصفدي في (الوافي بالوفيات)، ولا ابن النديم في (الفهرست). غير أن حاجي خليفة صاحب (كشف الظنون) قال فيه: المسالك والممالك المشهور بالعزيزي للحسين بن أحمد المهلبي المتوفى سنة 380 ألفه للعزيز بالله الفاطمي صاحب مصر ونسبه إلى اسمه)، وربما يرجع خطأ حاجي خليفة في تسميته بالحسين بدل الحسن إلى اعتماده على ياقوت الحموي الذي يخطئ أيضاً في الاسم غير مرة.

ويشير الباباني في (هدية العارفين) إلى المهلبي ولكنه يذكر معلومات غير دقيقة فينسب الكتاب للمعز الفاطمي وليس للعزيز.

ولا نعرف على ماذا اعتمد حاجي خليفة والباباني في تقدير أن وفاة المهلبي كانت في عام 380 هـ، 990م.

وقد تجاوز المستشرقون الغربيون الذين درسوا التراث الجغرافي العربي هذا المؤلف الفذ، باستثناء المستشرق آدم ميتز صاحب كتاب (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع [الهجري])، الذي قال (إن لكتاب المهلبي مزية، هي أنه أول كتاب وصف بلاد السودان وصفاً دقيقاً، وكان علماء الجغرافيا في القرن الرابع لا يعرفون من أخبار السودان شيئاً).

كما تحدث عنه المستشرق الروسي إغناتي يوليانوفيتش كراتشكوفسكي صاحب (تاريخ الأدب الجغرافي العربي)، الذي أكد على الأثر الكبير لكتاب المهلبي على المؤلفات التالية.

وعلى الرغم من أن كراتشكوفسكي يقر بصعوبة الحكم على هذا الكتاب بسبب فقدانه، فهو يلاحظ أن المقتطفات التي نقلها عنه المؤلفون المتأخرون، توضح أنه يستند على أوصاف الطرق، وخاصة طرق إفريقيا، فهو يمثل أحد المصادر الرئيسية لياقوت، الذي ينقل عنه أكثر من ستين مرة[24]، ولكنه لا يقتصر على إفريقيا وحدها، فياقوت مثلاً يرجع إليه أكثر من مرة بصدد مواضع مختلفة في الجزيرة العربية. ويلاحظ كراتشكوفسكي أن ياقوت يوليه عناية خاصة من بين مصادره ويضعه جنباً إلى جنب مع المقدسي.

ويشير أخيراً إلى أن أبا الفداء استعان به كثيراً، كما ظل كتابه معروفاً مباشرة إلى أيام دولة التيموريين فاستعمله في بداية القرن التاسع الهجري [الخامس عشر الميلادي] حافظ آبرو[25] عندما وضع مصنفه في الجغرافيا[26].

ومن الواضح أن المهلبي أراد لكتابه أن يكون جديداً في كل شيء، فلم ينقل عن غيره من المصنفين العرب الذين سبقوه في هذا العلم، ولم يشر إلى أي مصدر، كما أن الدراسة المقارنة للنصوص تجعلنا نجزم بأن معلوماته أصيلة حققها بنفسه، ومصدرها تجربة شخصية وبحث ميداني. ومن هنا أتت أهمية هذا الكتاب، ولذلك نقل عنه مؤلفون رصينون مثل ابن العديم وياقوت الحموي و أبو الفداء.

---

(24) في الواقع ياقوت ينقل عنه 53 مرة

(25) جغرافي ومؤرخ فارسي ويعرف أيضاً باسم شهاب الدين عبد الله بن لطف الله الهروي

(26) تاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي 230/1

وقد فقد الكتاب العزيزي من التداول اعتباراً من النصف الثاني من عهد المماليك، وربما أحرق في هذه المرحلة بسبب بعض الآراء المخالفة للوعي السائد آنذاك. وفي عام 2005 قمت [تيسير خلف] بجمع هذا الكتاب المفقود من مختلف المصادر التي نقلت عنه، إضافة إلى مخطوطة مكتبة الأمبروزيانا الإيطالية، التي تضم وصف بيت المقدس ومسجد دمشق، مع ذكر لولاة مصر حتى عهد الكاتب. وصدر الكتاب عن دار التكوين بدمشق[27].

وكما أسلفنا، يقدم كتاب المهلبي وصفاً لبيت المقدس وفلسطين، يبدو انه كان أكبر من النصوص التي نشرناها، لأنها أساساً مجزوءة من قبل المقتبسين، باستثناء وصف بيت المقدس الذي نعتقد أنه كامل.

ومما يلفت النظر في هذا الوصف إشارته لوجود كنيسة مقابلة للمسجد الأقصى من جهة المحراب بحيث تتصل أروقتها بأروقة المسجد. وهذه الملاحظة تعدّ على غاية من الأهمية، بالنسبة إلى وضع المساجد والكنائس في بيت المقدس قبل الحروب الصليبية، وما تلاها من عمليات هدم وإعادة بناء طالت كل شيء تقريباً.

وقد عدنا إلى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد للوقوف على الاقتباسات التي أخذها المهلبي عنه عندما تحدث عن تاريخ بيت المقدس، مع ملاحظة أن النصوص تكاد تكون متطابقة بين ما نقله المهلبي وبين ما هو موجود في أسفار العهد القديم بترجمته المتداولة اليوم، وهو ما يؤشر إلى وجود نسخة عربية مترجمة كانت متداولة أيام المؤلف، قد تكون هي النسخة التي تحدثت عنها المراجع السريانية بالقول إن أحد الخلفاء العباسيين طلب ترجمة للكتاب المقدس من السريان، فقام عدد من المسيحيين العرب التغالبة بذلك.

وينقل المهلبي عن الكتاب المقدس دون أن يشير إلى موضع النقل جرياً على عادة القدماء، إذ يكتفي بالقول: (يزعم أهل الكتاب)، أو (قال أهل الكتاب)، أو (قال أهل الكتاب من النصارى).

ولعل الملاحظة الجديرة بالانتباه في هذه المناسبة، هي أن الكثير من العقائد والمفاهيم والمعلومات الجغرافية والتاريخية حول فلسطين وبيت المقدس، مشتقة من مصادر كتابية، [انجيلية وتوراتية]، وذلك سيراً على قاعدة الإقرار بنبوة واصطفاء أنبياء بني إسرائيل، التي أقرتها أولاً المسيحية، ثم سار على منوالها الإسلام.

---

[27] الكتاب العزيزي المسالك والممالك للحسن بن احمد المهلبي، جمعه وعلق علق عليه تيسير خلف، دار التكوين، دمشق 2005.

صفة بيت المقدس

قال الحسن بن أحمد المهلبي: كان أبو عبيدة بن الجراح قد افتتح من فلسطين مدينة نابلس، وسفسطية[28]، وبيت جبرين، ومدينة يافا، كل ذلك صلحاً على أداء الجزية والخراج في الأرضين. وكان ذلك كله في أيام عمر بن الخطاب في سنة ست عشرة من الهجرة. وكان عمرو بن العاص قد افتتح غزة قبل ذلك في أيام أبي بكر صلحاً على هذه الشريطة. ثم إن أبا عبيدة حاصر مدينة إيليا، وهي بيت المقدس. فطلب أهلها الصلح على مثل صلح الجند كله من أداء الجزية والخراج، على أن يكون عمر بن الخطاب المتولي للعقد بنفسه. فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك فسار عمر من المدينة حتى نزل الجابية[29]، ثم سار إلى بيت المقدس فتمم الصلح في سنة سبع عشرة. وكتب لأهلها، واستثنى عليهم موضعاً من كنيستها فبناه مسجداً يعرف به الآن.

ومدينة إيليا[30] هذه مدينة عظيمة في جبل شامخ علي مسيرة يوم من مدينة الرملة، مبنية بالحجارة العادية[31]. بناها سليمان بن داود عليهما السلام، وبها الجامع الأعظم، طوله تسع مئة ذراع، وعرضه خمس مئة ذراع وعشرون ذراعاً، مبني على أزاج عظام[32]، تحته، يُنزل إليها بدرج، ويخرج من أبواب لها شاهقة إلى طرقات تحت المسجد مستقلة كأنها طبقة ثانية تحت المسجد.

والمسجد على شفير واد من شرقيه يعرف بوادي جهنم. والطرقات المستقلة تحت

---

(28) وتكتب ايضاً سبسطية وهي من اعمال نابلس حسب ياقوت الحموي

(29) وتسمى جابية الجولان وكانت مقر ملوك الغساسنة

(30) المقصود هنا مدينة القدس وكان هذا اسمها قبل الفتح الإسلامي، وقد ورد اسمها هكذا في نص العهدة العمرية، واصل الاسم يعود إلى القرن الأول الميلادي عندما اطلق الامبراطور الروماني هدريان (hadrian) اسم إيليا كابيتولينا على المستعمرة الرومانية التي أنشأها مكان المدينة المدمرة

(31) اي القديمة وكل قديم يقال له عادي ولذلك أطلق العرب على الآثار اسم العاديات

(32) ازاج جمع مفرده ازج، وهو نوع من البناء (القاموس المحيط)

المسجد في الطبقة الثانية تفضي إليه. وحيطانه وأساسه مبنية بحجارة منحوتة، منها ما طول الحجر منه عشر أذرع، وعرضه وسمكه أربع أذرع.

ورواق المسجد القبلي الذي فيه المحراب شبيه بسدسه في الذرع. وليس الرواق في عرض الصحن كله، بل هو في مقدار ثلثي الصحن، والثلث الآخر مكشوف لا رواق عليه.

وسقف الرواق على كنائس شاهقة على عمد رخام، عليها حنايا معقودة تحمل الكنائس، وأوسطها كنيسة هي أعظمها، وهي المقابلة للمحراب، فإذا صار الإنسان في وسط الكنيسة بين المحراب والباب المساوي له صار تحت قبة تقطع الكنيسة العظمى، سمتها عشرون ذراعاً في مثلها[33].

والرواق كله مبلط بالمرمر وحيطانه كلها منقوشة، ويدور بالرواق من سائر جهاته أبواب مطوية، بين يديها أروقة على عُمد من سائر جهات المسجد، وكذلك كما يدور الصحن بأروقة على عُمد عرض الرواق أربع عشرة ذراعاً. ووسط الصحن دكة الصخرة، ارتفاعها من الأرض ست أذرع، وطولها مئة وعشرون ذراعاً في عرض مثلها.

ووسط الدكة قبة عالية على أركان مربعة بحيطان تدور بين الأركان، طول كل واحد خمس وخمسون ذراعاً، بأربعة أبواب في أربع جهات القبة.

يُدخل من كل باب منها إلى مثل دهليز مقدار طوله خمس أذرع، وتفضي جميعها إلى البيت الذي القبة في وسطه. وهي على عمد بتقطيع مثمن، ارتفاعها نيف وستون ذراعاً من عرضه للأرض، ملبسة بقراميد نحاس مذهبة، ومن تحتها عُمد رخام ملوّح ومجزّع، والقبة وحيطانها منقوشة بالفسافس[34] الملون المذهب.

والصخرة المقدسة وسط القبة عليها حظار[35] مبني. وارتفاعها من أرض القبة نحو ثلاث أذرع، وطولها نحو اثنتي عشرة ذراعاً في مثلها.

والحظار الذي حولها أيضاً مثمن. وتحتها مغارة ينزل الناس إليها بدرج. وهذه القبة كلها مفروشة بحصر البيامان النفيسة، وفيها عدد كبير من قناديل الفضة، وهذا المسجد هو الذي بناه سليمان بن داود عليهما السلام على الأساس الذي بناه داود عليه السلام.

---

[33] هذه معلومة جديدة

[34] صيغة اخرى للفسيفساء

[35] في لسان العرب الحظار كل ما حال بينك وبين شيء، وكل شيء حَجَرَ بين شيئين فهو حِظارٌ وحِجارٌ و الحِظارُ: الحَظِيرَةُ تعمل للإبل من شجر لتقيها البَرْد والريحَ؛ وفي التهذيب الحَظارُ، بفتح الحاء

ويزعم أهل الكتاب أن أول ظهور هذه الصخرة أن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام خص ابنه يعقوب بدعاء وبركة. فحسده أخوه العيص على ذلك. وكان شرساً شديداً. فخافت عليه أمهما رفقى من أخيه فأشارت عليه بالمسير إلى حران ليأخذ ابنة خاله رابان، وكانت امرأته هناك، ويستدفع مغبة شر أخيه عنه. فسار حتى إذا صار في الموضع الذي فيه الآن الصخرة، غشيه الليل فنام هنالك، وقد جعل تحت رأسه اثني عشر حجراً. فرأى في منامه كأن باباً في السماء انفتح، وعليه سلم موضوع، والملائكة تطلع منه وتنزل. فقال في نفسه: هذا باب السماء. وشرف الموضع عنده. ثم وجد الحجارة التي كانت تحت رأسه قد صارت حجراً واحداً، فازداد شرف الموضع في نفسه[36].

ويقول أهل الكتاب: إن أول جزو [جزء] خُلق من الأرض الصخرة، وإن آدم عليه السلام هنالك خُلق. وإن ماء الطوفان تجافى عن موضع الصخرة، وإنه أول مذبح كان بعد الطوفان.

وإن الله تعالى قد كان أمر إبراهيم عليه السلام بالصلاة في هذا الموضع. ولم يزل الموضع شريفاً يخص الله عز وجل بمعرفته أولياءه إلى أن دخل بنو إسرائيل الشام من مصر.

فلما تمكنوا وظهر الإيمان بالله وعظم أمرهم، ورأوا سائر أهل الأرض بملوك، وأحبوا أن يكون لهم ملك يجمعهم. وإنما كان يسوسهم رؤساؤهم على غير سبيل الملك.

---

[36] الكتاب المقدس، سفر التكوين، «فحقد عيسو على يعقوب من اجل البركة التي باركه بها ابوه وقال عيسو في قلبه قربت ايام مناحة ابي فاقتُلُ يعقوب اخي فأخبرت رفقة بكلام عيسو ابنها الأكبر، فارسلت ودعت يعقوب ابنها الأصغر وقالت له هوذا عيسو اخوك متسل من جهتك بأنه يقتلك فالآن يا ابني اسمع لقولي وقم اهرب إلى اخي لابان إلى حاران وأقم عنده اياماً قليلة حتى يرتد سخط اخيك (.) وقالت رفقة لاسحاق مللت حياتي من اجل بنات حثّ وإن كان يعقوب يأخذ زوجة من بنات حث مثل هؤلاء من بنات الأرض فلماذا لي حيوة [الإصحاح السابع والعشرون] فدعا إسحق يعقوب وباركه واوصاه وقال له لا تأخذ زوجة من بنات كنعان قم اذهب إلى آرام فدان إلى بيت بتوئيل ابي امك وخذ لنفسك زوجة من هناك من بنات لابان اخي امك (.) فخرج يعقوب من بئر السبع وذهب نحو حاران وصادف مكاناً وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت راسه فاضطجع في ذلك المكان ورأى حلماً وإذا سلم منصوبة على الأرض وراسها يمس السماء وهوذا ملائكة الله صاعدة نازلة عليها. وهوذا الرب واقف عليها فقال انا الرب إله إبراهيم ابيك وإله اسحق الأرض التي أنت مضطجع عليها اعطيها لك ولنسلك ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً. ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض وها انا معك واحفظك حيثما تذهب واردّك إلى هذه الأرض لأني لا اتركك حتى افعل ما كلمت به فاستيقظ يعقوب من نومه وقال حقاً إن الرب في هذا المكان وانا لم أعلم وخاف وقال ما ارهب هذا المكان ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء وبكر يعقوب في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت راسه واقامه عموداً وصب زيتاً على راسه ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل ولكن اسم المدينة اولاً كان لوز. ونذر يعقوب نذر قائلاً إن كان الله معي وحفظني في هذا الطريق الذي انا سائر فيه واعطاني خبزاً لآكل وثياباً لألبس ورجعت بسلام إلى بيت ابي يكون الرب لي إلهاً. وهذا الحجر الذي اقمته عموداً يكون بيت الله وكل ما تعطيني فإني اعشره لله» [الإصحاح الثامن والعشرون]

وكان النبي في ذلك الوقت شمويل. فسأل الباري عز وجل، أن يملك عليهم ملكاً منهم يجمع أمرهم وأن يعرفه به. فأوحى الله إليه: اجمع القوم، فأطولهم قدراً هو ملكهم. وكان طالوت الذي ذكره الله في الكتاب أمد بني إسرائيل قامة. فكان أطولهم فلما طُلب للملك هرب ورعاً فيه وكراهية لحمل ثقل الملك. فقدمه النبي مكرهاً فملكه عليهم فأقام مدة ثم هلك[37].

وملك بعده داود عليه السلام. فأقام في الملك أربعين سنة، فأراد في بعضها أن يبني البيت الذي هو المسجد الآن. فأوحى الله تعالى إليه أن ابنه سليمان هو الذي يبنيه. فبنى داود الأساس الذي ذكرتُه، وأعد للبيت، على ما يذكر أهل الكتاب من الذهب الإبريز ثلاثة آلاف قنطار، ومن الفضة البيضاء سبعة آلاف قنطار، ومن الذهب الدون ومن الفضة الدون والحديد والنحاس ألف ألف قنطار، ومن الجواهر ما لا يحصى. ولما ابتدأ سليمان عليه السلام ببناء البيت تبرع بنو إسرائيل في ذلك اليوم له بخمسة آلاف قنطار ذهباً وعشرة آلاف قنطار فضة، ومئة ألف قنطار نحاساً وحديداً.

وبنى سليمان عليه السلام البيت في ثلاث عشرة سنة[38]. وكان عدد الأجراء في البيت سبعين ألف أجير. وكان قطاعو الحجارة ثمانين ألف قطاع، وكان رؤساء البنائين والوكلاء ثلاثة آلاف وخمس مئة رجل[39].

ولم يكن يسمع في البيت بضرب قدوم، لأن الحجارة والخشب كانت تنحت خارج البيت، ويدخل بها مفروغاً منها[40].

قال أهل الكتاب: وكان البيت قد غشي بالذهب.

---

[37] الكتاب المقدس، سفر صموئيل الأول، واستدعى صموئيل الشعب إلى الرب إلى المصفاة وقال لبني إسرائيل هكذا يقول الرب إله إسرائيل إني أصعدت إسرائيل من مصر وأنقذتكم من يد المصريين ومن يد جميع الممالك التي ضايقتكم وأنتم قد رفضتم اليوم إلهكم الذي هو مخلصكم من جميع الذين يسيئون إليكم ويضايقونكم وقلتم له بل تجعل علينا ملكاً. فالآن امثلوا امام الرب حسب أسباطكم وألوفكم (.) فسألوا أيضاً من الرب هل يأتي الرجل أيضاً إلى هنا. فقال الرب هوذا اختبأ بين الأمتعة فركضوا وأخذوه من هناك فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب من كتفه فما فوق فقال صموئيل لجميع الشعب أرأيتم الذي اختاره الرب إنه ليس مثله في جميع الشعب فهتف كل الشعب وقالوا ليحي الملك [الإصحاح العاشر] وصموئيل هو شمويل، وطالوت هو شاؤول

[38] الكتاب المقدس، سفر الملوك الأول، «وأما بيته فبناه سليمان في ثلاث عشرة سنة وأكمل كل بيته» [الإصحاح السابع]

[39] الكتاب المقدس، سفر الملوك الأول، «وكان لسليمان سبعون ألفاً يحملون أحمالاً وثمانون ألفاً يقطعون في الجبل ما عدا رؤساء الوكلاء لسليمان الذين على العمل ثلاثة آلاف وثلاث مئة المتسلطين على الشعب العاملين العمل» [الإصحاح الخامس]

[40] الكتاب المقدس، سفر الملوك الأول، «ولم يسمع في البيت عند بنائه منحت ولا معول ولا أداة من حديد» [الإصحاح السادس]

قالوا: وكان سليمان قد عمل في البيت بستاناً من ذهب فيه على مثال سائر الأشجار من ذهب.

قالوا: وجعل الله فيه آية.

قالوا: فكانت كل شجرة فيه تطعم من الثمر ما تطعمه الشجرة التي هي معمولة على مثالها.

قالوا: وكان في هذا البيت عشر آيات.

منها: أنه لم يُسقط حبلى قط من روائح طبيخ فيه.

ولم ينتن لحم القربان به قط،

ولم تر فيه ذبابة قط،

ولم يجنب الإمام ليلة صومه الأكبر فقط،

ولم يوجد في خبز فيه عفن قط،

ولم تمل الريح دخان القربان في صعوده إلى الجو قط،

ولم يطفئ المطر نار القربان قط،

ولم يلسب الهوام المؤذي بها أحد قط،

وكان الناس يصلون في البيت متضاغطين، فإذا سجدوا وجدوا بين كل اثنين منهم أربع أذرع، وكأن الأرض تتسع لسجودهم.

وكانت النار على صورة أسد رابض على المذبح.

فهذه عشر آيات.

قالوا: وفي اليوم الذي فرغ فيه سليمان عليه السلام من بناء البيت قرّب مئة ألف وعشرين ألفاً من الخرفان، واثنين وعشرين ألفاً من البقر، وأحرق جميع شحومها على المذبح[41].

قالوا: وبُني هذا البيت على رأس أربع مئة وثمانين سنة لخروج بني إسرائيل من مصر[42].

---

[41] الكتاب المقدس، سفر الملوك الأول، «ثم إن الملك وجميع معه ذبحوا ذبائح أمام الرب وذبح سليمان ذبائح السلامة التي ذبحها للرب من البقر اثنين وعشرين ألفاً ومن الغنم مئة ألف وعشرين ألفاً. فدشن الملك وجميع بني إسرائيل بيت الرب في ذلك اليوم قدس الملك وسط الدار التي أمام بيت الرب لأنه قرّب هناك المحرقات والتقدمات وشحم ذبائح السلامة» [الإصحاح الثامن]

[42] الكتاب المقدس، سفر الملوك الأول، «وكان في سنة الأربع مئة والثمانين لخروج بني إسرائيل من ارض مصر في السنة الرابعة للملك سليمان» [الإصحاح السادس]

قالوا: وأخربه بخت نصّر ومدينة بيت المقدس، وسبى بني إسرائيل وقتلهم أبرح القتل بخلافهم أمر الله، على رأس أربع مئة وعشر سنين من بنائه[43].

قالوا: وردّ البيت واستؤنف بناؤه الكرة الأخيرة في أيام دارا بن دارا، ودانيال النبي عليه السلام، على رأس سبعين سنة من إخرابه المرة الأولى[44].

قالوا: وأقام بهذه العمارة الأخيرة تسع مئة وإحدى وعشرين سنة.

ثم تنصرت الروم فأخربه طيطوس ملك لهم[45].

وقال أهل الكتاب النصارى: ولد المسيح عليه السلام ببيت لحم على أربعة أميال من بيت المقدس في الحد القبلي منها. فبنوا على موضع مولده كنيسة ليس على وجه الأرض مثلها[46].

قالوا: وكان مع بني إسرائيل يتعلم العلم،

قالوا: وبمدينة بيت المقدس قتله بنو إسرائيل، وموضع خشبته التي يدعون صلبه عليها، وقبره الذي يدعون دفنه فيه، هو الكنيسة المعروفة بالقمامة[47]، أعظم كنيسة على وجه الأرض، مبنية بالرخام المجزّع والفسافس الملون، والنحاس المذهب. وقبر مريم عليها

---

(43) الكتاب المقدس، سفر دانيال، «في السنة الثالثة من ملك يهو ياقيم ملك يهوذا ذهب نبوخذ ناصر ملك بابل إلى اورشليم وحاصرها وسلم الرب بيده يهوناقيم ملك يهوذا مع بعض آنية بيت الله فجاء بها إلى ارض شنعار» [الإصحاح الأول].

(44) راجع سفر دانيال، الإصحاح العاشر.

(45) - في سنة 70 ميلادية هدم تيطوس (titus) ابن الإمبراطور الروماني فيسباسيان هيكل هيرودوس الذي كان قد بناه مكان المعبد القديم أو في مكان قريب منه راجع دراسة نقولا زيادة في الموسوعة الفلسطينية الجزء الثاني «فلسطين من الإسكندر إلى الفتح العربي الإسلامي».

(46) - المقصود كنيسة المهد.

(47) - كنيسة القيامة، وفعل كنس وقمّ مترادفان لغةً وحسب ياقوت الحموي فإن «قُمَامَة» بالضم، أعظم كنيسة للنصارى بالبيت المقدس، وصفُها لا ينضبط حُسناً وكثرة مال وتنميق عمارة، وهي في وسط البلد والسور يحيط بها، ولهم فيها مقبرة يسمونها القيامة لاعتقادهم أن المسيح قامت قيامته فيها، والصحيح أن اسمها قمامة لأنها كانت مزبلة أهل البلد وكان في ظاهر المدينة يُقطع بها أيدي المفسدين ويصلب بها اللصوص، فلما صُلب المسيح في هذا الموضع عظّموه كما ترى، وهذا مذكور في الإنجيل، وفيه صخرة يزعمون أنها انشقت وقام آدم من تحتها والصليبوت فوقها سوى، ولهم فيها بستان يوسف الصدّيق عليه السلام، يزورونه، ولهم في موضع منها قنديل يزعمون أن النور ينزل من السماء في يوم معلوم فيشعله» أما المؤرخ ابن خلدون فيعزو هذه التسمية إلى أن القديسة هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين التي «ارتحلت إلى القدس في طلب الخشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم، فأخبرها القمامصة بأنه رمي بخشبته على الأرض، وألقي عليها القمامات والقاذورات فاستخرجت الخشبة، وبنت مكان تلك القمامات كنيسة القمامة كأنها على قبره بزعمهم»

السلام على شفير الوادي المعروف بوادي جهنم، قد بنيت عليها كنيسة جليلة تعرف بالجسمانية[48].

ولما بنت هلانة أم قسطنطين الملك كنيسة قمامة وغيرها من الكنائس أمرت بتقصي هدم البيت، وجعلت موضع الصخرة حشوش البلد ومزابله فدثر[49]. فلما فتح عمر البلد جاءه اليهود فعرفوه بالموضع، فأمر المسلمين بتنظيفه، وعاونه اليهود على ذلك فكشف عن الموضع وبنى المسلمون عليه مسجداً[50].

فلما كان في أيام الوليد بن عبد الملك بنى المسجد على أساسه القديم وبنى القبة على الصخرة، وحسن الموضع وسواه، وبنى فيه قباباً غيرها سمى بعضها قبة المعراج، وبعضها قبة الميزان، وبعضها قبة السلسلة، وبعضها قبة المحشر. وأقام في نفوس الطغام من أهل الشام أن الناس يحشرون إلى ذلك الموضع ويحاسبون فيه، وأنه عُرج بالنبي عليه السلام من ذلك الموضع إلى السماء، استتناء لهم، وصداً عن الحج، وإشغالاً لهم بهذا المكان عن الحجاز، خوفاً على أهل الشام أن يدخلوا الحجاز فيلقاهم الناس ويعرفونهم فضل أهل البيت عليهم السلام على بني أمية، لأنه لم يكن بالشام أحد يظن أن للنبي قرابة إلاّ بني أمية[51].

مسجد إبراهيم الخليل

وعلى ثمانية عشر ميلاً من بيت المقدس في سمت القبلة، مسجد إبراهيم عليه السلام، وهو الموضع الذي كان به منزله وضيافته، وبه استضافه الملائكة المرسلون إلى قوم لوط.

---

[48] - كنيسة الجسمانية معروفة حتى اليوم في القدس

[49] - يبدو ان مصادر التاريخ المسيحية كانت معرية في زمن المهلبي

[50] - لم ينكر اي من الإخباريين العرب ان اليهود ساعدوا عمر بن الخطاب في التعرف على موضع الصخرة

[51] - هذه القصة منسوخة عن قصة يربعام التي يسردها المهلبي عند حديثه عن مدينة نابلس كما سنرى لاحقاً، والملاحظ ان ابا الفداء في تقويم البلدان ينقل قصة الوليد بن عبد الملك عن المهلبي لكنه يقول في نهاية الاقتباس «والعهد عليه في ذلك» اي انه لم يعثر على هذا الكلام في مصدر آخر، تقويم البلدان ص 227 ولكن المؤرخ اليعقوبي يقول (ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج، وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم، إذا حجوا، بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة، فضج الناس، وقالوا: تمنعنا من حج بيت الله الحرام، وهو فرض من الله علينا! فقال لهم: هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله قال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس، وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام، وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها، لما صعد إلى السماء، تقوم لكم مقام الكعبة، فبنى على الصخرة قبة، وعلق عليها ستور الديباج، وأقام لها سدنة، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة، وأقام بذلك أيام بني أمية) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص261[

ويقول أهل الكتاب: إن إبراهيم عليه السلام إنما رغب في ذلك الموضع واتخذه وطناً لأن قبر آدم وحواء عليهما السلام فيه، وأنه اشترى المغارة التي فيها القبر من عفرون بن صوحر بأربع مئة قنطار فضة[52].

قالوا: وفي الموضع الآن قبر إبراهيم وسارة وإسحاق ورفقى ويعقوب ولايا.

رَفَحْ

قال المهلبي: ورفح مدينة عامرة فيها سوق وجامع ومنبر وفنادق، وأهلها من لخم وجُذام وفيهم لصوصية وإغارة على أمتعة الناس، حتى إن كلابهم أضر كلاب أرض بسَرِقَة ما يسرق مثله الكلاب، ولها والي معونة برسمه عدة من الجند، ومن رفح إلى مدينة غزة ثمانية عشر ميلاً، وعلى ثلاثة أميال من رفح من جنب هذه غزة شجر جمّيز مصطف من جانبى الطريق عن اليمين والشمال نحو ألف شجره متصلة أغصان بعضها ببعض مسيرة نحو ميلين[53]، وهناك منقطع رمل الجفار ويقع المسافرون في الجلَد[54].

أرسوف

قال العزيزي: وبينها وبين الرملة اثنا عشر ميلاً.

قال: وبينها وبين يافا ستة أميال.

قال: وأرسوف مدينة على البحر لها سوق وعليها سور.

وقال: أيضاً ومن أرسوف إلى قيسارية ثمانية عشر ميلاً[55].

---

[52] - الكتاب المقدس، سفر التكوين، فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حث وكلمهم قائلاً إن كان في نفوسكم ان ادفن ميتي من امامي فاسمعوني والتمسوا لي من عفرون بن صوحر ان يعطيني مغارة المكفيلة التي له في طرف حقله بثمن كامل يعطيني إياها في وسطكم ملك قبر(.) فأجاب عفرون إبراهيم قائلاً له ياسيدي اسمعني ارض باربعمائة شاقل فضة ما هي بيني وبينك فادفن ميتك فسمع إبراهيم لعفرون ووزن إبراهيم لعفرون الفضة التي ذكرها في مسامع بني حث اربع مائة شاقل فضة جائزة عند التجار (.) وبعد ذلك دفن إبراهيم سارة امرأته في حقل المكفيلة أمام ممرا التي هي حبرون في أرض كنعان [الإصحاح الثالث والعشرون]

وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة صالحة شيخاً شبعان اياماً وانضم إلى قومه ودفنه إسحق وإسماعيل ابناه في مغارة المكفيلة في حقل عفرون بن صوحر الحثي [الإصحاح الخامس والعشرون]

[53] - تختص غزة والمدن المجاورة لها بشجر الجميز حتى يومنا هذا وهو شجر يطرح ثماراً حلوة المذاق شبيه بالتين

[54] - معجم البلدان، مادة رفح

[55] - تقويم البلدان، ص239

أَرِيحا

قال في العزيزي:

هي أول مدينة فتحها يوشع بن نون من أعمال الشام[56]. على أربعة أميال منها مشرقاً نهر الأردن، ويزعم النصارى أن المسيح تعمد في ذلك الموضع، وعنده مقالع الكبريت وليس بفلسطين معدن غيره.

قال: وبأريحا يزرع الوسمة فيعمل منها النيل[57]، وبينها وبين بيت المقدس اثنا عشر ميلاً في جهة الغرب[58].

بانياس

قال العزيزي:

ومدينة بانياس[59] في لحف جبل الثلج، وهو مطل عليها، والثلج على رأسه كالعمامة لا يعدم منه صيفاً ولا شتاء[60]. وفي رأس الجبل ضيعة تعرف بصردا[61]، ومنها إلى ضيعة تعرف بكفرلا[62] بوادي كنعان[63] ثمانية عشر ميلاً ومن كفرلا إلى جب يوسف[64] اثنا عشر ميلاً. ومن بانياس إلى ضيعة تعرف ببيت سابر[65] على وادي

---

(56) - تحتل قصة احتلال اريحا الإصحاحات الستة الأولى من سفر يشوع بن نون في الكتاب المقدس

(57) - النيل هنا هي صبغة النيلة الزرقاء التي تستخدم في تزهير الثياب البيضاء

(58) - تقويم البلدان، ص236

(60) - تقويم البلدان، ص 249

(61) - توجد قرية مهجورة الآن في مثلث الحدود السورية اللبنانية الفلسطينية اسمها صردا وقريبة من الموقع الذي يحدده المهلبي ولكنها ليست على راس الجبل

(62) - ينفرد المهلبي بذكر هذه القرية، والتي لم يعد لها أثر في العهود اللاحقة، إذ لا توجد قرية بهذا الاسم حالياً، ولكن من خلال حديث المسعودي في «مروج الذهب» عن بحيرة كفرلى التي يعدها من مصادر بحيرة طبرية يمكن القول إنها لابد وان تكون هي نفسها بحيرة الحولة التي جففت في الخمسينات، إضافة إلى تقدير المسافة بين صردا والبحيرة، وعليه فإن قرية كفرلا هي إحدى القرى المحيطة ببحيرة الحولة وليست كفر كلا التي تقع في جنوب لبنان بعيداً جداً عن البحيرة، كما خمن بعض الباحثين

(63) - يقول المقدسي البشاري إن طبرية هي قصبة وادي كنعان، ويحدد ابن فضل الله العمري في «مسالك الأبصار» ان وادي كنعان هو الوادي الذي يشقه نهر الأردن من منبعه إلى مصبه في بحيرة زغر (البحر الميت) وفي ترجمة زين الدين الحافظي في «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» يذكر ابن ابي أصيبعة ان كسرة التتر على يد الملك المظفر قطز تمت في وادي كنعان وتعرف المعركة باسم عين جالوت وهي بلدة بين بيسان ونابلس كما يقول ياقوت

(64) - جب يوسف محطة على طريق دمشق- فلسطين- مصر وهي المحطة الأولى بعد جسر يعقوب

(65) - قرية معروفة حتى اليوم بهذا الاسم قريبة من سمسم

يعرف ببيت جن[66] ثمانية عشر ميلاً، ومنها إلى قرية كالمدينة تعرف بداريا[67] من غوطة دمشق خمسة عشر ميلاً ومنها إلى دمشق ثلاثة أميال[68].

الرَّملة

قال العزيزي: والرملة قصبة فلسطين، وهي محدثة، وبينها وبين البيت المقدس مسيرة يوم. وقال الرملة لم تكن مدينة قديمة وإنما كانت المدينة لدّ فأخربها سليمان بن عبد الملك وبنى مدينة الرملة، وبينهما نحو ثلاثة فراسخ، ولدّ في ناحية المشرق وكان لعبد الملك دارٌ بالرملة، وجر إلى الرملة قناة ضعيفة للشرب منها، وأكثر شربهم الآن من الآبار العذبة ومن صهاريج يجتمع فيها مياه المطر في سهل من الأرض[69].

طبرية

قال العزيزي: وبين طبرية وبين عمان اثنان وسبعون ميلاً، وبين طبرية أيضاً وبين جب يوسف ستة أميال، ومدينة طبرية في الغور على ضفة بحيرة لها طولها اثنا عشر ميلاً وعرضها ستة أميال، والجبل من غربي المدينة، والبحيرة من شرقيها، والجبال تدور بها[70].

عَسْقلان

قال العزيزي: ومدينة عسقلان هي على ضفة البحر على تلعة، وهي من أجل مدن الساحل وليس لها مينا، وشرب أهلها من آبار حلوة، وبينها وبين غزة اثنا عشر ميلاً، وبينها وبين الرملة ثمانية عشر ميلاً[71].

---

[66] - وبيت جن معروفة اليوم أيضاً وهي على السفح الشرقي لجبل الشيخ

[67] - داريا إلى الغرب من دمشق ويبدو أن المهلبي يتحدث عن محطات الطريق الذي يصل دمشق بمدينة بانياس، وهو طريق أول من أنشأه السلوقيون وفيه أجزاء مرصوفة بالحجر حتى اليوم وجدده خلفاء الامبراطور هدريان في العهد الروماني، كما أن ابن جبير سلكه في طريقه من دمشق إلى بانياس

[68] - تقويم البلدان، ص 249، والإضافة حاشية رقم 12ص273

[69] - تقويم البلدان، ص 241، ويقتبس ياقوت أيضاً مقطعاً صغيرة في مادة الرملة

[70] - تقويم البلدان ص243

[71] - تقويم البلدان، ص 239

عكّا

قال العزيزي: هي جليلة وشرب أهلها من قناة تجري إلى المدينة، ولها مينا جليل واسع كانت الصناعة به.

ومنها إلى مدينة صور اثنا عشر ميلاً. وبين عكا وطبرية أربعة وعشرون ميلاً[72].

عَمتَا

قال المهلبي من عَمان إلى عمتا، وبها يُعملُ النيل الفائقة وهي في وسط الغور، اثنا عشر فرسخاً ومنها إلى مدينة طبرية اثنا عشر فرسخاً[73].

عَمْوَاس

قال المهلبي: كورة عمواس هي ضيعة جليلة على ستة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس[74].

قيسارية

قال العزيزي: وبينها وبين الرملة على ضفة البحر اثنان وثلاثون ميلاً. قال ومدينة قيسارية مدينة جليلة. قال ومنها إلى مدينة عكا ستة وثلاثون ميلاً[75].

نابلس

قال في العزيزي: إن يربعم لما صار معه عشرة أسباط وخرج على بني سليمان بن داوود سكن نابلس وبنى على جبل بنابلس هيكلاً عظيماً وكفّر داوود وسليمان وغيرهما من أنبياء بني إسرائيل، وقال بنبوة موسى وهرون ويشوع، وشرع للسمرة دينهم، وصدهم عن الحج إلى البيت المقدس لئلا يطلعوا على فضل بني سليمان فيتغيرون على يربعم، ومن حينئذ ابتدأ دين السَمَرة بعد أن لم يكن وصار حجهم إلى جبل بظاهر نابلس[76].

---

[72] - تقويم البلدان، ص 243 والحاشية في الصفحة 270.

[73] - معجم البلدان، مادة عمتا.

[74] - معجم البلدان، مادة عمواس

[75] - تقويم البلدان، ص 239.

[76] - تقويم البلدان، ص241 والتشابه واضح مع قصة بناء الوليد بن عبد الملك للمسجد الأقصى، وهذه القصة منقولة عن سفر الملوك الأول، الإصحاحان 12 و13.

نهر أبي فطرس

قال المهلبي: على اثني عشر ميلاً من الرملة في سمت الشمال نهر أبي فطرس ومخرجه من أعين في الجبل المتصل بنابلس وينصب في البحر الملح بين يدي مدينتي أرسوف ويافا، به كانت وقعة عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس مع بني أمية فقتلهم في سنة 132. فقال إبراهيم مولى قائد العبلي يرثيهم[77]. [من المتقارب]

أفاض المدامع قتلى كدا	وقتلى بكثوة لم ترمس
وقتل بوج وباللابتين	بيثرب هم خير ما أنفس
وبالزابيين نفوس ثوت	وأخرى بنهر أبي فطرس
أولئك قوم أناخت بهم	نوائب من زمن متعس
إذا ركبوا زينوا المركبين	وإن جلسوا زينة المجلس
هم أضرعوني لريب الزمان	وهم ألصقوا الرغم بالمعطس
فما أنس لا أنس قتلاهم	ولا عاش بعدهم من نسي

قال المهلبي: وعلى نهر أبي فطرس أوقع أحمد بن طولون بالمعتضد فهزمه[78].

قال: وعليه أخذ العزيز هفتكين التركي، وفلت عساكر الشام عليه، وبالقرب منه أوقع القائد فضل بن صالح بأبي تغلب حمدان فقتله، ويقال إنه ما التقى عليه عسكران إلا هزم المغربي منهما[79] الشرقي.

---

(77) - ربما كان اقتباس أبيات الشعر لياقوت

(78) - يصحح ياقوت هذه المعلومة بقوله: «إنما كانت الوقعة بموضع يقال له الطواحين بين المعتضد وخمارويه بن احمد بن طولون»

(79) - معجم البلدان، مادة نهر ابي فطرس، وقد اقتبس صاحب تقويم البلدان من المهلبي ايضاً حول النهر واسماه نهر العوجاء: «ومن كتاب المسالك والممالك المعروف بالعزيزي، أن نهر العوجاء يسمى نهر ابي فُطرس، وهو شمالي مدينة الرملة باثني عشر ميلاً قال وما التقى عليه جيشان إلاّ غلب الغربي منهما وانهزم الشرقي فإن عليه انهزم المعتضد من خمارويه بن أحمد ابن طولون وعليه انتصر العزيز خليفة مصر الفاطمي واسر هفتكين التركي مقدم جيش الشرق» تقويم البلدان ص48.

فلسطين في (أحسن التقاسيم)

نص الرحالة المقدسي البشاري حول إقليم الشام

لم يُكتب في تاريخ الرحلات العربية وغير العربية إلى فلسطين، أجمل وأكمل مما كتب الرحالة المقدسي البشاري عن بيت المقدس وباقي المدن الفلسطينية، فنصه الاستثنائي عن إقليم الشام، المتضمن في كتابه الشهير (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، يُعَدُ وثيقة جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية عن حال بلاد الشام عموماً وفلسطين خصوصاً، في مرحلة غاية في الحساسية تعاصر تحول بلاد الشام من الدعاء في المساجد للخليفة العباسي، إلى الدعاء للخليفة الفاطمي.

وفي هذا الزمن الخطير، الذي تزامن مع مسيرة التراجع العربي في منطقة المشرق عموماً، واستعادة البيزنطيين زمام المبادرة، عبر استرجاع بعض المدن والأقاليم الشمالية من بلاد الشام، ولد الرحالة والجغرافي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي المعروف بالبشاري[80] في القدس في عام 335 هـ، 946م، وتوفي عام 380هـ،990م، أي أنه لم يعش أكثر من 44 عاماً، طاف خلالها معظم أرجاء المشرق الإسلامي آنذاك.

كان جده مهندساً بارعاً، كما ذكر في كتابه، شارك في بناء ميناء عكا في عهد أحمد بن طيلون [طولون] [ت 270هـ، 883م]. وكما ذكر في كتابه، فإن والدته تنتمي إلى آل الشوأ الذين هاجروا إلى فلسطين من إقليم الديلم شرقي إيران الحالية، وكان يذكر خاله عبد الله الشوأ في ثنايا كتابه مستشهدا ببعض آرائه ومعارفه.

وقد حصل المقدسي على ثقافة نوعية حيث تعلم في صغره القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، ثم ارتحل إلى العراق وتفقه على مذهب أبي حنيفة النعمان على يد القاضي أبي الحسن القزويني [ت 442 هـ 1050 م]، وبرع في النحو واللغة ونظم الشعر.

---

[80] - نسبة لقبيلة بني بشار العربية

رحلته :

بدأ المقدسي رحلته من مدينة القدس إلى الحجاز في بداية عام 356هـ، 966م لغاية الحج، ثم طاف العراق وأثور [الجزيرة] والشام ومصر والمغرب وزار أقطار العجم وبداها بإقليم المشرق ثم الديلم والرحاب والجبال وخوزستان وفارس وكرمان والسند، ويبدو أنه انتهى من رحلته في حدود عام 375هـ، 985م استناداً إلى ما ذكره في متن الكتاب من أنه أنهى تأليفه في مدينة شيراز عاصمة إقليم فارس بعد أن أتم الأربعين من عمره.

وعن منهجه ومعاناته في تأليف كتابه ننقل ما جاء في الكتاب بحرفيته نظراً لعمق معناه وجمال أسلوبه ودقة اختزاله للمعاني، يقول المقدسي: (اعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صنفوا في هذا الباب، وإن كانت مختلة، غيرأن أكثرها بل كلها سماع لهم. و[أما] نحن فلم يبق إقليم إلا وقد دخلناه، وأقل سبب إلا وقد عرفناه.

وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر في الغيب، فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام: أحدها ما عايناه، والثاني ما سمعناه من الثقات، والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وفي غيره.

وما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمتها، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها، ولا أهل زهد إلا وقد خالطتهم، ولا مذكرو [وعّاظ] بلد إلا وقد شهدتهم، حتى استقام لي ما ابتغيته في هذا الباب.

ولقد سميت بستة وثلاثين إسماً دعيت وخوطبت بها مثل: مقدسي وفلسطيني ومصري ومغربي وخراساني وسلمي ومقرئ وفقيه وصوفي وولي وعابد وزاهد وسَيَّاح وَوَرَّاق ومجلد وتاجر ومذكّر وإمام ومؤذن وخطيب وغريب وعراقي وبغدادي وشامي وحنيفي ومتؤدب وكريّ ومتفقه ومتعلم وفرائضي وأستاذ ودانشومند وشيخ ونشاسته وراكب ورسول، وذلك لاختلاف البلدان التي حللتها، وكثرة المواضع التي دخلتها. ثم إنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً غير الكُدْيَة [التسول] وركوب الكبيرة، فقد تفقهت وتأدبت، وتزهدت وتعبدت، وفقهت وأدبت. وخطبت على المنابر، وأذنت على المنائر. وأممت في المساجد، وذكرت في الجوامع، واختلفت إلى المدارس. ودعوت في المحافل، وتكلمت في المجالس. وأكلت مع الصوفية الهرائس. ومع الخانقائيين الثرائد، ومع النواتي العصائد.

وطردت في الليالي من المساجد، وسحت في البراري، وتهت في الصحاري. وصدقت في الورع زمانا، وأكلت الحرام عياناً. وصحبت عباد جبل لبنان، وخالطت حيناً السلطان.

وملكت العبيد، وحملت على رأسي بالزنبيل. وأشرفت مراراً على الفرق، وقطع على قوافلنا الطرق.

وخدمت القضاة والكبراء، وخاطبت السلاطين والوزراء. وصاحبت في الطرق الفساق، وبعت البضائع في الأسواق. وسجنت في الحبوس، وأخذت على أني جاسوس. وعاينت حرب الروم في الشواتي[81] وضرب النواقيس في الليالي. وجلدت المصاحف بالكرى، وأشتريت الماء بالغلاء. وركبت الكنائس والخيول، ومشيت في السمائم والثلوج. ونزلت في عرصة الملوك بين الأجلة، وسكنت بين الجهال في محلة الحاكة.

وكم نلت العز والرفعة، ودبر في قتلي غير مرة. وحججت وجاورت، وغزوت ورابطت. وشربت بمكة من السقاية السويق، وأكلت الخبز والجلبان بالسيق. ومن ضيافة إبراهيم الخليل، وجميز عسقلان السبيل. وكسيت خلع الملوك وأمروا لي بالصِّلات. وعريت وافتقرت مرات، وكاتبني السادات، ووبخني الأشراف. وعرضت علي الأوقاف، وخضعت للأخلاف. ورميت بالبدع، واتهمت بالطمع. وأقامني الأمراء والقضاة أمينا، ودخلت في الوصايا وجعلت وكيلاً. وامتحنت الطرارين، ورأيت دول العيارين. واتبعني الأرذلون، وعاندني الحاسدون، وسعي بي إلى السلاطين.

ودخلت حمامات طبرية، والقلاع الفارسية. ورأيت يوم الفوارة، وعيد بربارة، وبئر بضاعة[82]، وقصر يعقوب[83] وضياعه. ومثل هذا كثير، ذكرنا هذا القدر ليعلم الناظر في كتابنا أنا لم نصنفه جزافاً، ولا رتبناه مجازاً، ويميزه من غيره.

فكم بين من قاسى هذه الأسباب، وبين من صنف كتابه في الرفاهية ووضعه على السماع. ولقد ذهب لي في هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم سوى ما دخل علي من التعصير[84] في أمور الشريعة.

ولم يبق رخصة مذهب إلا وقد استعملتها. قد مسحت على القدمين، وصليت بمد هامَّتين، ونفرت قبل الزوال، وصليت الفريضى[85] على الدواب، ومع نجاسة فاحشة على الثياب، وترك التسبيح في الركوع والسجود، وسجود السهو قبل التسليم. وجمعت بين

---

(81) - الشواتي هي الغزوات الشتوية والصوائف الغزوات الصيفية

(82) - بئر بضاعة: بئر اثرية قديمة تقع في الجهة الشمالية الغربية من الحرم النبوي

(83) - يقع قصر يعقوب عند جسر بنات يعقوب إلى الشمال الشرقي من صفد، وهو موقع أثري ما تزال رسومه موجودة حتى اليوم

(84) - هو طرح القيم والمفاهيم والقضايا الشرعية والفقهية الاسلامية من وجهة نظر معاصرة اسلوبياً، ومنهجاً وموضوعاً

(85) - الصحيح صلاة الفريضة وهي صلاة الفرض وشرعاً صلاة الفرض لابد فيها من ركوع وسجود فلا تجوز على المركوب

الصلوات، وقصرت لا في سفر الطاعات. غير أني لم أخرج عن قول الفقهاء الأئمة، ولم أؤخر صلاة عن وقتها بتة.

وما سرت في جادة، وبيني وبين مدينة عشرة فراسخ فما دونها، إلا فارقت القافلة وانفتلت إليها لأنظرها قديماً، وربما اكتريت رجالاً يصحبونني، وجعلت مسيري في الليل لأرجع إلى رفقائي مع إضاعة المال والهم).

أول من طبع منتخبات من كتاب (أحسن التقاسيم) المستشرق الهولندي دي خوييه عام 1875، ثم نشره كاملاً بالعربية ضمن سلسلة المكتبة الجغرافية العربية، وطبع بليدن في هولندا عام 1906ميلادي.

يعدُه المستشرق الألماني شبرنفر اكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة، وقد رأى فيه المستشرق الروسي اغناتي كراتشكوفسكي آخر عظماء المدرسة الكلاسيكية في الجغرافيا العربية.

أما المستشرق كرامرز فلاحظ أن المقدسي أكثر الجغرافيين العرب أصالة، وأن كتابه واحد من أكثر المصنفات الجغرافية في الأدب العربي قيمة[86].

فلسطين في رحلة المقدسي :

تحتل القدس خصوصاً، وفلسطين عموماً مكاناً أثيراً في رحلة المقدسي التي صنفها في كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، فهي تستأثر بالغالبية العظمى من حديثه عن إقليم الشام.

ويظهر حب المقدسي لفلسطين وبيت المقدس في الكثير من مواقف رحلته، التي شملت الشرق الإسلامي برمته.

ولعل مرد ذلك يعود إلى انتعاش جُنْدَيْ فلسطين والأردن في ذلك الزمن، وتراجع جندي قنسرين وحمص نتيجة تعرضهما للخطر البيزنطي الناهض ذلك الزمن. أما جند دمشق فيوليه المقدسي عناية لا بأس بها، لكنها لا تضارع عنايته بجند فلسطين.

واللافت للنظر أن تقسيمات الفتوح الإسلامية التي قسمت بلاد الشام إلى خمسة أجناد كانت ما تزال سارية في عهد المقدسي، ولم تبطل إلا في زمن الصليبيين والدول الإسلامية المعاصرة لهم.

---

[86] - احسن التقاسيم ص / 43. اعلام الجغرافيين العرب ص / 255. ادب الرحلات عند العرب في المشرق ص / 123. تاريخ الأدب الجغرافي 1 / 208، 215.

وفي زمن المقدسي كانت فلسطين الحالية تتوزع على ثلاثة من أجناد الشام وهي:

جند فلسطين الذي ورث ولايتي فلسطين الأولى وفلسطين الثالثة من الحقبة البيزنطية، ويشمل بيت المقدس ووسط وجنوبي فلسطين، مع بعض مدن شرقي الأردن كمؤاب وصفر وعمان.

وجند الأردن الذي ورث فلسطين الثانية، حيث كان يشمل منطقة الجليل برمتها إضافة إلى الجولان وجنوبي لبنان وجبال عجلون وسواد البلقاء وأغوارها.

وجند دمشق، الذي ورث ولاية فينيقيا اللبنانية البيزنطية، والذي كان يضم فيما يضم من أقاليم فلسطين إقليم سهل الحولة الذي كانت مدينته بانياس.

ولقد لفتت عناية المقدسي البشاري بجندي فلسطين والأردن نظر الكثير من الباحثين والكتاب، حتى أن الكاتب زكريا محمد[87] عدّ المقدسي البشاري أول من تحدث عن هوية فلسطينية في التاريخ العربي.

ويستشهد الكاتب المذكور ببعض نصوص (أحسن التقاسيم) لاثبات وجهة نظره، ويقول في هذا السياق إن (لدينا نصاً واحداً على الأقل يثبت أن فلسطين كانت ذات هويّة منذ ألف سنة على الأقل. هذا النص كتبه واحد من أعظم مثقفي فلسطين على مر العصور، وواحد من نخبة الثقافة العربية في عصرها الكلاسيكي، ألا وهو الجغرافي المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم). وهو نتاج رحلة جغرافية قام بها المقدسي في نهاية القرن العاشر الميلادي). والنص الذي يعنيه الكاتب هو حواره مع بنائين من شيراز حيث حكى (لهم مسائل في البناء. فقال لي الأستاذ: أنت مصري؟ قلت: لا، أنا فلسطيني. قال:سمعت أن عندكم تخرّم الأحجار كما يخرّم الخشب. قلت:أجل. قال: أحجاركم لينة ولصناعتكم لطافة).

وثمة حديث آخر للمقدسي عندما سئل في مجلس القاضي المختار أبي يحيى بن بهرام بالبصرة حين سئل عن أي بلد يجل فقال: بلدنا، يعني فلسطين، وأتى بالكثير من الشواهد التي دعمت رأيه.

وكان الدكتور سهيل زكار قد تنبه إلى هذه الحقيقة مبكراً، فقد أكد (أن الإنسان لا يتعدى الحقيقة إذا ما تحدث عن كيان اسمه فلسطين في العصر الفاطمي). غير أنه

---

(87) - (الجغرافي المقدسي ونص الهوية الفلسطينية)، زكريا محمد، مجلة الطريق، رام الله، العدد الثالث والعشرون- اوائل نيسان/ ابريل 2005

يضيف أن (هذا الحال قد تعرض للتبدل أواخر القرن الحادي عشر بسبب هجرة طوائف التركمان والغز إلى فلسطين، وحدث التغير بشكل جذري إثر نجاح الحملة الصليبية الأولى عام 493هـ 1099م في احتلال القدس وأجزاء من فلسطين ومن ثم إقامة المملكة اللاتينية فيها)[88].

وعلى العموم يبدو نص المقدسي حول إقليم الشام نصاً فريداً في سياق الأدب الجغرافي العربي، لم يكتب مثله أو قريباً منه على مر العصور، ولذلك ننشره في كتابنا هذا كاملاً لم نحاول أن نجزئه أو أن نستخلص منه ما جاء حول فلسطين، لأن فلسطين كانت مبثوثة في كل سطر من سطوره.

(88) - الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، ص 536

إقليم الشام

عنوان الإقليم :

إقليم الشام جليل الشأن ديار النبيين ومركز الصالحين، ومعدن البدلاء[89] ومطلب الفضلاء، به القبلة الأولى وموضع الحشر والمسرى، والأرض المقدسة والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة ومهاجر ابراهيم وقبره، وديار أيوب وبئره، ومحراب داود وبابه، وعجائب سليمان ومدنه، وتربة إسحاق وأمه، ومولد المسيح ومهده، وقرية طالوت ونهره، ومقتل جالوت وحصنه، وجب ارميا وحبسه، ومسجد أوريا وبيته، وقبة محمد وبابه، وصخرة موسى، وربوة عيسى، ومحراب زكريا، ومعرك يحيى، ومشاهد الأنبياء، وقرى أيوب، ومنازل يعقوب، والمسجد الأقصى وجبل زيتا، ومدينة عكا ومشهد صديقا، وقبر موسى ومضجع إبراهيم ومقبرته، ومدينة عسقلان وعين سلوان، وموضع لقمان ووادي كنعان، ومدائن لوط وموضع الجنان، ومساجد عمر ووقف عثمان، والباب الذي ذكره الرجلان، والمجلس الذي حضره الخصمان، والسور الذي بين العذاب والغفران، والمكان القريب ومشهد بيسان، وباب حطة[90] ذو القدر والشأن، وباب الصور وموضع اليقين، وقبر مريم وراحيل ومجمع البحرين، ومفرق الدارين، وباب السكينة وقبة السلسلة، ومنزل الكعبة مع مشاهد لا تحصى وفضائل لا تخفى، وفواكه ورخاء وأشجار ومياه، وآخرة ودنيا، به يرق القلب وينبسط للعبادة الأعضاء، ثم به دمشق جنة الدنيا، وصغر البصرة الصغرى، والرملة البهية وخبزها الحواري، وإيليا الفاضلة بلا لأوى، وحمص المعروفة بالرخص وطيب الهوا، وجبل بصرى وكرومه، فلا تنس وطبرية الجليلة بالدخل والقرى.

---

[89] - البدلاء او الأبدال، يكونون بالشام، وهم اربعون رجلاً، كلما مات منهم رجل، ابدل الله مكانه رجلاً، يسقى بهم الغيث وينصر بهم على الأعداء ويصرف بهم عن اهل الأرض البلاء، وقد روى هذا الحديث الترمذي عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه، وثمة رواية لحديث البدلاء عن طريق انس ابن مالك، وهذه الأحاديث اثارت جدلاً قديماً وحديثاً.

[90] - باب حطة: يقع في الحائط الشمالي من سور المسجد وهو الواقع بين مئذنة باب الأسباط وباب فيصل وانه من اقدم الأبواب وجدد في سنة 617هـ الموافق 1220م

ثم البحر يمد على غربية، فالحمولات فيه إليه أبداً، وبحر الصين متصل بطرفه الأقصى، له سهل وجبل وأغوار وأشياء.

والبادية على تخومه كالزقاق، منه إلى تيماء، وبه معادن الرخام وعقاقير كل دواء، ويسار وتجار ولباقة وفقهاء، وكتاب وصناع وأطباء، إلا أنهم على خوف من الروم وفي جلاء، والأطراف قد خربت وأمر الثغور قد انقضى[91]. وليسوا كالأعاجم في العلم والدين والنهي، بعض قد ارتد، وبعض للجزية في أداء، يقدمون طاعة المخلوق على طاعة ربّ السماء، عامتهم جهال أو غوغاء، لا نهضة في جهادٍ ولا حمية على الأعداء[92].

ويقال إنما سميت الشام لأنها شامة[93] الكعبة، وقيل بل من تشاءم الناس إليها، وقيل بل لشامات بها حمر وبيض وسود. وأهل العراق يسمون كل ما كان وراء الفرات شاماً، ولهذا أرسل محمد بن الحسن القول في دواوينه: وليس وراء الفرات من الشام غير كورة قنسرين وحسب، والباقي بادية العرب والشام من ورائها. وإنما أراد محمد التقريب والمتعارف بين الناس كما يقال لخراسان المشرق، وإنما هو من ورائها وإنما الشام كل ما قابل اليمن وكان الحجاز بينهما[94].

فإن قال قائل: ما تنكر أن يكون طرف البادية إلى حدود العراق من الشام ليصح ما قاله أهل العراق، قيل: قد قسمنا الأقاليم ورسمنا الحدود، فلا ينبغي لنا أن ندخل في إقليم من غيره.

فإن قال قائل: فمن أين لك أنه ليس منه في القديم؟ قيل له: لم يختلف فقهاء الشريعة وأهل هذا العلم أن هذه الأرض المتنازع فيها أنها من جزيرة العرب، ولو جعلها أحد من الشام لا مجازاً، لكان لنا أن نقول له: حدود الشام التي رسمناها مُجْمَعٌ عليها، وما زدتم مختلف فيه، وعلى من ادعى الزيادة الدليل.

وقد أعرضنا عن ذكر طرسوس وأعمالها لأنها بيد الروم، وأما الكهف[95] فإن

---

[91] - هذه الإشارة تؤكد ان المقدسي كتب نصه هذا بعد عام 354 للهجرة [965 ميلادية]، عندما استعاد البيزنطيون طرسوس والمصيصة من المسلمين، فهذه المدن هي الثغور في ذلك الوقت

[92] - هذا النقد لأبناء الشام، وخصوصاً الشماليين منهم، اي ابناء الثغور والعواصم، يتكرر عند الحسن بن احمد المهلبي راجع مؤلفنا صورة الجولان في التراث الجغرافي العربي الإسلامي، والجولان في مصادر التاريخ العربي والكتاب العزيزي للمهلبي

[93] - اي شمال الكعبة، والشام هو الشمال بالعربية

[94] - هذا الكلام تأكيد على مركزية الحجاز والكعبة المشرفة بالنسبة للجغرافيا العربية

[95] - ينحو المقدسي نحو البحاثة المسلمين بشأن موقع كهف اصحاب الكهف المذكورين في القرآن الكريم بينما ثمة إجماع في الأوساط المسيحية بأن افسس هي موقع كهف اصحاب الكهف في عهد الإمبراطور ديسيوس او ديقيوس [إما

المدينة هي طرسوس وبها قبر دقيانوس وبرستاقها تل عليه مسجد قالوا هو على الكهف.

قصة الكهف

وحدثنا الفقيه أبو عبد الله محمد بن عمر البخاري قال: حدثنا أبو طالب اليماني قال: حدثنا الحسن بن يحيى قال: حدثنا أبي قال: حدثنا محمد بن سهل الخراساني قال: قرأت على هشام بن محمد حدثنا مجاهد بن يزيد قال: خرجت مع خالد البريدي[96] في أيام وُجِّه إلى الطاغية سنة 102 هجرية[97] [720- 721م] وليس معنا ثالث من المسلمين فقدمنا القسطنطينية، ثم خرجنا منصرفين إلى عمورية، ثم أتينا اللاذقية ا المحترقة في أربع ليال، ثم انتهينا إلى الهوية، وهي جوف جبل.

فذكر لنا أن بها أمواتاً لا يدرى ما هم، وعليهم حراس، فأدخلونا سرباً طوله نحو من خمسين ذراعاً في عرض ذراعين بالسرج، وإذا وسط السرب باب من حديد مكمن لعيالهم إذا جاءهم العرب، وإذا خربة عظيمة وسطها نقرة من ماء عرضها نحو من خمسة عشر ذراعاً يرى منها السماء، وإذا كهف ذلك المكان إلى جوف ذلك الجبل، فانطلق بنا إلى كهف مما يلي الجوف من الهوية طوله نحو من عشرين ذراعاً، وإذا فيه ثلاثة عشر رجلاً رقوداً على أقفيتهم، على كل رجل منهم جبة لا أدري من صوف أو وبر، إلا إنها غبراء، وكساءً أغبر يتقعقع كما يتقعقع الرق، وقد غطى بكسائه وجهه وسائر جسده، وإذا هي ذوات أهداب وعلى بعضهم خفاف إلى أنصاف سوقهم، وبعض بنعال، وبعض بشمشكات[98]، والجميع جدد، فكشفت عن وجه أحدهم فإذا شعر رأسه ولحيته لم يتغير، وإذا بشرة وجهه منيرة ودم وجهه ظاهر كأنما رقدوا تلك الساعة، وإذا أعضاؤهم كألين ما

بين 249-251 ميلادية] بناء على رواية المؤرخ السرياني يعقوب السروجي الذي كان اول من روى هذه القصة، اما غالبية المؤرخين والباحثين المسلمين فيعتقدون ان طرسوس هي مكان إقامة اصحاب الكهف، وفي أيام السلطنة العثمانية تم إرسال بعثة استكشافية حددت مكان الكهف على بعد ساعتين من طرسوس، في محافظة اضنه

[96] - احد القادة العباسيين في عهد المهدي والرشيد يرد ذكره في كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير في الجزء الرابع، حوادث سنة 169هجرية وتحديداً في حادث مقتل الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب بالمدينة

[97] - هذا التاريخ خاطئ على الأرجح وهو خطأ من احد الناسخين، لأن عام 102 ربما لم يكن خالد البريدي قد ولد والدولة الأموية كانت قائمة ولم تسقط إلا بعد اكثر من ثلاثين عاماً من هذا التاريخ

[98] - من واضح أن سياق الحديث يشير إلى نوع من الأحذية قد يكون جلداً مخيطاً، لأن هذه الكلمة تشبه نوعاً من الأطعمة الدمشقية التي تحشى وتخيط وتسمى بسمشكات وقد تكون تركية او فارسية

يكون من أعضاء الرجل الحي، وكلهم شباب غير أن بعضهم قد وخطه الشيب، وإذا بأحدهم قد ضربت عنقه. فسألتهم عن ذلك فقالوا: غلبت علينا العرب وملكت الهوية، فأخبرناهم خبرهم فلم يصدقونا، فضرب أحدهم عنق هذا، وزعم أهل الهوية أنه إذا كان رأس كل سنة في يوم عيد لهم يجتمعون فيه يقيمونهم رجلاً رجلاً، فيتركونهم قياماً ويمسحونهم وينفضون غبار ثيابهم ويسوون أكسيتهم عليهم، فلا يسقطون ولا يتحرجون، ويضجعونهم وأنهم يقلمون أظفارهم في السنة ثلاث مرات ثم تنبت، فسألناهم عن أسبابهم وأمرهم، فزعموا أنهم لا علم لهم بشيء من أمرهم غير أنا نسميهم الأنبياء. قال مجاهد وخالد: فيظن أنهم أصحاب الكهف والله أعلم.

أقسام الشام

وهذا شكل الإقليم ومثاله في الصفحة المنقلبة، وقد قسمنا هذا الإقليم ست كور[99]: أولها من قبل أثور[100] قنسرين ثم حمص ثم دمشق ثم الأردن ثم فلسطين ثم الشراة.

فأما قنسرين فقصبتها حلب ومن مدنها: أنطاكية، بالس، السويدية، سميساط، منبج، بياس، التينات، قنسرين، مرغش، إسكندرونة، لجون، رفنية، جوسية، حماة، شيزر، وادي بطنان، معرة النعمان، معرة قنسرين.

وأما حمص فاسم القصبة أيضاً ومن مدنها: سلمية، تدمر، الخناصرة، كفرطاب، اللاذقية، جبلة، أنطرسوس، بلنياس، حصن الخوابي.

وأما دمشق فاسم القصبة أيضاً ومدنها: بانياس، صيدا، بيروت، أطرابلس، عرقة، وناحية البقاع مدينتها: بعلبك، ولها: كامد، عرجموش، الزيداني. ولدمشق ست رساتيق: الغوطة، حوران، البثنية، الجولان، البقاع، الحولة.

وأما الأردن فقصبتها طبرية ومن مدنها: قدس، صور، عكا، اللجون، كابل، بيسان، أذرعات.

وأما فلسطين فقصبتها الرملة ومدنها: بيت المقدس، بيت جبريل، غزة، ميماس، عسقلان، يافة، أرسوف، قيسارية، نابلس، أريحا، عمان.

وأما الشراة فجعلنا قصبتها صغر ومدنها: مآب، معان، تبوك، أذرح، ويلة، مدين.

---

(99) - جمع كورة، وتعادل في مصطلحات عصرنا المحافظة

(100) - ترد أقور ونرجح انها خطأ نسخي والصحيح آثور، وهي الجزيرة الفراتية او جزيرة الموصل كما كانت تسمى

مدن الشام

وفي هذا الإقليم قرىً أجل وأكبر من أكثر مدن الجزيرة مثل داريا وبيت لهيا وكفرسلام وكفرسابا غير أنها على رسوم القرى معدودة فيها وقد قلنا إن عملنا موضوع على التعارف.

حلب:

وأما حلب فبلد نفيس خفيف حصين، وفي أهلها ظرف، ولهم يسار وعقول، مبنيٌ بالحجارة عامر، في وسط البلد قلعة حصينة واسعة فيها ماءٌ وخزائن السلطان. والجامع في البلد، شربهم من نهر قويق يدخل إلى البلد إلى دار سيف الدولة في شباك حديد. والقصبة ليست بكبيرة إلا أن بها مستقر السلطان، لها سبعة أبواب: باب حمص، باب الرقة، باب قنسرين، باب اليهود، باب العراق، باب دار البطيخ، باب إنطاكية، وباب الأربعين، مسدود.

بالس:

رأس الحد من قبل الرقة عامرة.

قنسرين:

مدينة قد خف أهلها، حدثنا الشيخ العدل أبو سعيد أحمد بن محمد بنيسابور قال: حدثنا أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة قال: حدثنا أبو عمار بن حريث المروزي قال: حدثنا الفضل أبو موسى عن عيسى بن عبيد عن غيلان بن عبد الله العامري عن أبي زرعة عن عمرو ابن جرير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله عز وجل أوحى إلى أي هؤلاء الثلاث نزلت فهي دار هجرتك المدينة أو البحرين أو قنسرين. فإن قال قائل: لم جعلت قصبة الكورة حلب وههنا مدينة على اسمها؟ قيل له: قد قلنا إن مَثَل القصبات كالقواد، والمدن كالجند، ولا يجوز أن نجعل حلب على جلالتها وحلول السلطان بها وجمع الدواوين إليها، وإنطاكية ونفاستها، وبالس وعمارتها، جنداً لمدينة خربة صغيرة. فإن قال: هلا استعملت هذا القياس في شيراز، فأضفت إليها اصطخر ومدنها؟ قيل: لما وجدنا بشيراز مدناً أحدقت بها، وتباعدت اصطخر عنها، استحسنا ما فعلناه ثم والاستحسان في علمنا هذا ربما غلب القياس كما قلنا في مسائل المكاتب، الا ترى أن التأجيل بالنيروز والمهرجان باطل في سائر الأحكام، جائز في الكتابة استحساناً.

حمص:

ليس بالشام بلد أكبر منها، وفيها قلعة متعالية عن البلد ترى من خارج، أكثر شربهم من ماء المطر، ولهم أيضاً نهر، ولما فتحها المسلمون عمدوا إلى الكنيسة، فجعلوا نصفها جامعاً عنده بالسوق قبة على رأسها شبه من رجل نحاس واقف على سمكة تديرها الأرياح الأربع، وفيه أقاويل لا تصح، والبلد شديد الاختلال متداعٍ إلى الخراب، والقوم حمقى. وسائر المدن مختلة والأسعار بها رخيصة، وما كان منها على الساحل حصينة، وكذلك تدمر وهي على مثل كرسي، من مدن سليمان بن داود[101]، والقصبة قريبة من البادية رحبة طيبة.

دمشق:

هي مصر الشام ودار الملك أيام بني أمية وثمّ قصورهم وآثارهم. بنيانهم خشب وطين، وعليها حصن أحدث وأنا به من طين، أكثر أسواقها مغطاة، ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن. وهو بلد قد خرقته الأنهار وأحدقت به الأشجار، وكثرت به الثمار مع رخص أسعار، وثلج وأضداد، لا ترى أحسن من حماماتها، ولا أعجب من فواراتها، ولا أحزم من أهلها.

الذي عرفت من أبوابها : باب الجابية، باب الصغير، باب الكبير، باب الشرقي، باب توما، باب النهر، باب المحامليين. وهي طيبة جداً، غير أن في هوائها يبوسة، وأهلها غاغة، وثمارها تفهة، ولحومها عاسية، ومنازلها ضيقة، وأزقتها غامة، وأخبازها ردية، والمعايش بها ضيقة، تكون نحو نصف فرسخ في مثله في مستوى.

والجامع أحسن شيء للمسلمين اليوم، ولا يعلم لهم مال مجتمع أكثر منه، قد رفعت قواعده بالحجارة الموجهة، كباراً مؤلفة، وجعل عليها شرفٌ بهية، وجعلت أساطينها أعمدة سوداً ملساً على ثلاثة صفوف واسعة جداً، وفي الوسط إزاء المحراب قبة كبيرة، وأدير على الصحن أروقة متعالية بفراخ فوقها، ثم بلط جميعه بالرخام الأبيض، وحيطانه إلى قامتين بالرخام المجزع، ثم إلى السقف بالفسيفساء الملونة في المذهبة صور أشجار وأمصار وكتابات على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة، وقل شجرة أو بلد مذكور إلا وقد مثل على تلك الحيطان، وطليت رؤوس الأعمدة بالذهب. وقناطر الأروقة كلها مرصعة بالفسيفساء، وأعمده الصحن كلها رخام أبيض، وحيطانه بما يدور والقناطر وفراخها بالفسيفساء نقوش وطروح.

---

(101) - هذا الكلام مقتبس من كتاب العهد القديم وهو يقع في باب الخرافات

والسطوح كلها ملبسة بشقاق، الرصاص والشرافيات من الوجهين بالفسيفساء.

وعلى الميمنة في الصحن بيت مال على ثمانية عمد، مرصع حيطانه بالفسيفساء. وفي المحراب وحوله فصوص عقيقية وفيروزجية كأكبر ما يكون من الفصوص، وعلى الميسرة محراب آخر دون هذا للسلطان، وقد كان تشعث وسطه فسمعت إنه أنفق عليه خمسمائة دينار حتى عاد إلى ما كان، وعلى رأس القبة ترنجة فوقها رمانة كلاهما ذهب.

ومن أعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزع كل شامة إلى أختها. ولو أن رجلاً من أهل الحكمة أختلف إليه سنةً، لأفاد منه كل يوم صيغة وعقدة أخرى.

ويقال إن الوليد[102] جمع لبنائه حذاق فارس والهند والمغرب والروم، وأنفق عليه خراج الشام سبع سنين، مع ثماني عشرة سفينة ذهب وفضة أقلعت من قبرص، سوى ما أهدى إليه ملك الروم من الآلات والفسيفساء.

ويدخل إليه العامة من أربعة أبواب: باب البريد عن اليمين، كبير له فرخان عن يمين وشمال، على كل واحدٍ من الباب الأعظم، والفرخين مصراعان مصفحة بالصُفْر المُذهب[103]، وعلى الباب والفرخان ثلاثة أروقة، كل باب منهما يفتح إلى رواق طويل، قد عقدت قناطره على أعمدة رخام لبست حيطانه على ما ذكرنا. وجميع السقوف مزوّقة أحسن تزويق.

وفي هذه الأروقة موضع الوراقين ومجلس خليفة القاضي.

وهذا الباب بين المغطى والصحن[104] يقابله عن اليسار باب جيرون على ما ذكرنا، غير أن الأروقة معقودة بالعرض يصعد إليه في درج يجلس فيه المنجمون وأضرابهم.

وباب الساعات في زاوية المغطى الشرقية مصراعان سواذج[105]، عليه أروقة يجلس فيه الشروطيون وأشباههم.

والباب الرابع باب الفراديس، مصراعان قبال المحراب في أروقة بين زيادتين عن يمين وشمال، عليه منارة محدثة مرصعة على ما ذكرنا.

وعلى كل من هذه الأبواب ميضأة مرخمة ببيوت ينبع فيها الماء وفوارات خارجة في قصاع عظيمة من رخام.

---

[102] - الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، ابو العباس ولد عام حوالي عام 50هـ 670م، وحكم حوالي عشر سنوات حتى توفي عام 710م[

[103] - الصفر هو النحاس

[104] - المغطى هو الجزء المسقوف من المسجد، والصحن هو الجزء المكشوف

[105] - جمع ساذج اي على طبيعته بسيط دون تزويق او نقش

ومن الخضراء، وهي دار السلطان، أبواب إلى المقصورة مصفحة مطلية.

وقلت يوماً لعمي يا عم لم يحسن الوليد حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق، ولو صرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع وَرَمّْ الحصون لكان أصوب وأفضل.

قال: لا تفعل يا بني، إن الوليد وفق وكُشف له عن أمر جليلٍ، وذلك أنه رأى الشام بلد النصارى، ورأى لهم فيها بيعاً حسنة قد أفتن زخارفها وانتشر ذكرها، كالقمامة وبيعة لد والرها. فاتخذ للمسلمين مسجداً أشغلهم به عنهن، وجعله أحد عجائب الدنيا، ألا ترى أن عبد الملك[106] لما رأى عظم قبة القمامة وهيأتها خشي أن تعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبةً على ما ترى[107].

ووجدت في كتاب بخزائن عضد الدولة: عروسا الدنيا دمشق والري.

وقال يحيى بن أكثم ليس بالأرض أنزه من ثلاث بقاع: سمرقند، وغوطة دمشق، ونهر الأبلة.

ودمشق بناها دمشق بن قاني بن مالك بن أرفخشذ بن سام قبل مولد إبراهيم بخمس سنين.

وقال الأصمعي لا بل اشتق اسمها من دمشقوها أي أسرعوها.

ويقال إن عمر بن عبد العزيز أراد أن ينقض الجامع ويجعله في مصالح المسلمين حتى ناظروه في ذلك.

وقرأت في بعض الكتب: إنما أنفق عليه ثمانية عشر حمل بغلٍ ذهباً.

ومدينة بانياس:

على طرف الحولة وحد الجبل، أرخى وأرفق من دمشق، وإليها انتقل أكثر أهل الثغور لما أُخِذَتْ طرسوس، وزادوا فيها، وهي كل يوم في زيادة، لهم نهر شديد البرودة يخرج من تحت جبل الثلج، وينبع وسط المدينة.

وهي خزانة دمشق، رفقة بأهلها بين رساتيق جليلة، غير أن ماءها رديء.

وصيدا وبيروت:

مدينتان على الساحل حصينتان. وكذلك طرابلس إلا أنها أجل.

---

[106] - هو الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بن الحكم [26-86 هـ/646- 705 م] من اعظم الخلفاء الأمويين لقب بابي الملوك [حكم: 65-86 هـ/685-705 م]

[107] - من الواضح ان حديث المقدسي وعمه تم وهما في حرم المسجد الأقصى، او على مشارفه

بعلبك:

مدينة قديمة فيها مزارع وعجائب، معدن الأعناب وسائر مدنها طيبة رحاب.

نوى:

وبحوران والبثنية ضياع أيوب ودياره، مدينتها نوى معدن القموح والحبوب.

الحولة:

معدن الأقطان والأزهار وهي أغوار و أنهار.

الغوطة:

تكون مرحلة في مثلها يعجز عن وصفها.

طبرية:

قصبة الأردن وبلد وادي كنعان[108]، موضوعة بين الجبل والبحيرة، فهي ضيقة كربة في الصيف مؤذية، طولها نحو من فرسخ بلا عرض، وسوقها من الدرب إلى الدرب، والمقابر على الجبل.

بها ثماني حمامات بلا وقيد، وحياضٌ عدة حارة الماء، والجامع في السوق كبير حسن قد فرش أرضه بالحصى على أساطين حجارة موصولة.

ويقال أهل طبرية شهرين يرقصون، وشهرين يقمقمون، وشهرين يثاقفون، وشهرين عراة، وشهرين يزمرون، وشهرين يخوضون. يعني يرقصون من كثرة البراغيث، ويلوكون النبق، ويطردون الزنابير عن اللحم والفواكه بالمَذَابِّ، وعراة من شدة الحر، ويمصون قصب السكر، ويخوضون الوحل.

وأسفل البحيرة جسر عظيم[109] عليه طريق دمشق وشربهم منها.

عليها بما يدور قرى ونخيل، والسفن فيها تذهب وتجيء، وماء الحمامات والدواميس إليها، لا يستطيبها الغرباء، كثيرة الأسماك، خفيفة الماء، والجبل مطل على البلد شاهق.

---

[108] - وادي كنعان هو وادي الأردن، يبدأ من سهل الحولة وينتهي في البحر الميت، كما حدد ذلك العمري في مسالك الابصار ج1 ص 82.

[109] - عرف هذا الجسر قديماً باسم جسر الصنبرة نسبة إلى القرية التي بنى فيها معاوية بن ابي سفيان قصراً شتوياً، وفي العصور الإسلامية المتأخرة عرف باسم جسر المجامع وهو الآن جسر الري وإلى جانبه خان مهدم وآثار عقود، يقع جنوب طبرية و إلى الشمال الشرقي من بيسان

قدس[110]:

مدينة صغيرة على سفح جبل، كثيرة الخير، رستاقها جبل عاملة[111]، بها ثلاث عيون، شربهم منها، وحمامهم واحد تحت البلد، والجامع في السوق فيه نخلة، وهو بلد حارّ.

بحيرة الحولة:

ولهم بحيرة[112] على فرسخ، تصب إلى بحيرة طبرية، قد عمد إلى النهر فجسر[113] ببناء عجيب حتى يتبحر[114].

إلى جنبها غابة حلفاء[115] رفقهم منها، أكثرهم ينسجون الحصر ويفتلون الحبال، وفي البحيرة أنواع من السمك منه البني حمل من واسط[116] كثيرة الذمة[117].

جبل عاملة:

ذو قرى نفيسة وأعناب وأثمار وزيتون وعيون، المطر يسقي زروعهم، يطل على البحر ويتصل بجبل لبنان.

اذرعات:

مدينة قريبة من البادية رستاقها جبل جرش، يقابل جبل عاملة، كثير القرى وجلت طبرية بهذين الجبلين.

---

(110) - قرية صغيرة اليوم دمرت عام 1948 تقع في منتصف المسافة بين قريتي المالكية والنبي يوشع شمال مدينة صفد، على ارتفاع 450م عن سطح البحر على الحدود اللبنانية فوق المكان مدينة (قادش) الكنعانية المشهورة

(111) - هول جبل عامل الذي يقع في جنوب لبنان حالياً. وقد سمي بهذا الاسم لأن قبيلة عاملة العربية كانت تنزل به

(112) - بحيرة الحولة، وكانت تسمى بحيرة قدس ثم تجفيفها في الخمسينات من القرن العشرين بعد احتلال فلسطين

(113) - من الواضح ان المعنى لا يستقيم مع عبارة سجر الواردة في النص لأن سجر تعني اوقد، بينما الصحيح هو جسر اي اقيم عليه جسر، وربما هذه الإشارة الأولى للجسر الذي يسمى في ايامنا هذه جسر بنات يعقوب، او جسر يعقوب

(114) - اي حتى يدخل ماء النهر في بحيرة طبرية

(115) - كانت غابة الحلفاء موجودة في محيط بحيرة الحولة قبل تجفيفها.

(116) - تشتهر مدينة واسط في جنوب العراق بالسمك البني

(117) - اي فيها اناس من اهل الذمة غير المسلمين

بيسان:

على النهر كثيرة النخيل، وأرزاز[118] فلسطين والأردن منها . غزيرة المياه رحبة إلا أن ماءها ثقيل[119].

اللجون:

مدينة على رأس حد فلسطين في الجبال. بها ماءٌ جار رحبة نزيهة[120].

كابل:

مدينة ساحلية بها مزارع الأقصاب وبها لطبخ السكر الفائق[121].

الفراذية:

قرية كبيرة بها منبر معدن الأعناب والكروم بها ماءٌ غزير وموضع نزيه[122].

عكا:

مدينة حصينة على البحر كبيرة الجامع، فيه غابة زيتون تقوم بسرجه وزيادة، ولم تكن على هذه الحصانة حتى زارها ابن طيلون[123]، وقد كان رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على مينائها، فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء، فجمع صناع الكورة وعرض عليهم ذلك، فقيل: لا يهتدي أحد إلى البناء في الماء في هذا الزمان.

---

[118] - إشارة إلى زراعة الرز.

[119] - بيسان مدينة عريقة عرفت منذ العصور القديمة بهذا الاسم، وفي العصر العصور الكلاسيكية كانت عاصمة تحالف المدن العشر واسمها كان سكيثوبوليس

[120] - اللجون قرية من قرى الضفة الغربية وتتبع محافظة جنين، ومن القرى التي وقعت في حرب 1967. تقع اللجون على الروابي المحيطة بوادي اللجون بين مرج ابن عامر وجبل الكرمل، على بعد 16 كم شمال غرب جنين وحوالي 5 كم شمال ام الفحم في المثلث، وإلى الشمال الشرقي منها تقع آثار مجدّو وقلعتها الشهيرة على تل المتسلم وتكثر في محيط القرية العيون والينابيع، منها عين الخليل وعين الست ليلى

[121] - تسمى الآن كابول وهي عبارة تعني الأرض الوعرة غير المثمرة الأرامية والكنعانية تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة عكا، وتبعد عنها 14كم، وترتفع 100م عن سطح البحر تقوم القرية فوق موقع اثري يحتوي على بقايا مدينة وأساسات ومدافن وصهاريج

[122] - تسمى الآن الفراضية بالضاد، تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة صفد وتبعد عنها 10كم، وترتفع 400م عن سطح البحر، وفيها آثار قلعة

[123] - احمد بن طولون ابو العباس، مؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام والثغور في أواسط القرن الثالث الهجري

ثم ذكر له جدنا أبو بكر البناء، وقيل: إن كان عند أحدٍ علم هذا فعنده، فكتب إلى صاحبه على بيت المقدس حتى أنهضه إليه، فلما صار إليه وذكر له ذلك، قال: هذا أمر هين علي بفلق الجميز الغليظة.

فصفها على وجه الماء بقدر الحصن البري، وخيط بعضها ببعض، وجعل لها باباً من الغرب عظيماً، ثم بنى عليها بالحجارة والشيد، وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء، وجعلت الفلق كلما ثقلت نزلت، حتى إذا علم أنها قد جلست على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى أخذت قرارها، ثم عاد فبنى من حيث ترك.

كلما بلغ البناء إلى الحائط القديم داخله فيه وخيطه به، ثم جعل على الباب قنطرة فالمراكب في كل ليلة تدخل المينا وتجر السلسلة مثل صور. قال فدفع إليه ألف دينار سوى الخلع وغيرها من المركوب، واسمه عليه مكتوب، وقد كان العدو قبل ذلك يغير على المراكب.

الجش:

قرية وهي قريبة من القصبة موضوعة بين أربعة من الرساتيق قريبة من البحر[124].

صور:

مدينة حصينة على البحر، بل فيه يدخل إليها من باب واحد على جسرٍ واحد، قد أحاط البحر بها ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا أرض، تدخل فيه المراكب كل ليلة ثم تجر السلسلة التي ذكرها محمد بن الحسن في كتاب الإكراه[125]، ولهم ماء يدخل في قناة معلقة.

وهي مدينة جليلة نفيسة بها صنائع، ولهم خصائص، وبين عكا وصور شبه خليج، ولذلك يقال عكا حذاء صور، إلا أنك تدور، يعني حول الماء.

---

(124) - تقع إلى الشمال من مدينة صفد، وتبعد عنها 13كم، والقرية ذات موقع اثري يحتوي على انقاض كنيستين ونواويس واعمدة ومدافن وصهاريج ومغائر. كما يوجد فيها خربة العلوية في الشمال وتحتوي على جدران واسس وصهاريج مهدمة ومغائر. والجش اسم حملته هذه القرية في المصادر العربية، وتشير الأبحاث إلى انها قامت على مدينة احلَب الكنعانية ومدينة جسكالا التي تعود للحقبة الرومانية

(125) - كتاب الإكراه هو أحد اقسام صحيح البخاري، وكتاب الإكراه فصل من كتاب المبسوط للإمام ابو بكر محمد بن ابي سهل السرخسي

الرملة:

قصبة فلسطين، بهية حسنة البناء، خفيفة الماء، مرية واسعة الفواكه، جامعة الأضداد، بين رساتيق جليلة، ومدن سَرِيَّة، ومشاهد فاضلة، وقرى نفيسة، والتجارة بها مفيدة، والمعايش حسنة.

ليس في الإسلام أبهى من جامعها، ولا أحسن وأطيب من حواريها، ولا أبرك من كورتها، ولا ألذ من فواكهها.

موضوعة بين رساتيق زكية، ومدن محيطة، ورباطات فاضلة ذات فنادق[126] رشيقة، وحمامات أنيقة، وأطعمة نظيفة، وأدامات كثيرة، ومنازل فسيحة، ومساجد حسنة، وشوارع واسعة، وأمور جامعة،

قد خطت في السهل، وقربت من الجبل والبحر، وجمعت التين والنخل، وانبتت الزروع على البعل، وحوت الخيرات والفضل، غير أنها في الشتاء جزيرة من الوحل، وفي الصيف ذريرة من الرمل.

لا ماء يجري ولا خضر، ولا طين جيد ولا ثلج، كثيرة البراغيث عميقة الآبار مالحة، وماء المطر في جباب مقفلة، فالفقير عطشان والغريب حيران، وفي الحمام ديوان، ويدور في الدولاب خدام.

وهي ميل راجح في ميل[127]، بنيانهم حجارة منحوتة حسنة وطوب.

الذي أعرف من دروبها: درب بئر العسكر، درب مسجد عنبة، درب بيت المقدس، درب بيلعة، درب لد، درب يافا، درب مصر، درب داجون، يتصل بها مدينة تسمى داجون[128].

الجامع الأبيض

فيها [الرملة]جامع، وجامع القصبة في الأسواق أبهى وأرشق من جامع دمشق يسمى الأبيض، ليس في الإسلام أكبر من محرابه، ولا بعد منبر بيت المقدس أحسن من منبره، وله منارة بهية، بناه هشام بن عبد الملك[129].

---

[126] - الفندق هو المنزول او المكان المعد للإقامة واصل الكلمة يوناني (باندكيون) تم تعريبها إلى فندق

[127] - اي ان طولها اكثر من ميل بقليل وعرضها ميل

[128] - من المرجح انها قرية بيت دجن التي تقع على مسافة 9 كم إلى الشرق من مدينة يافا. وداجون هو اسم إله الفلسطينيين القديم الذي كان يصور على شكل شيخ له راس وجذع بشري وبطن وذيل سمكة

[129] - هشام بن عبد الملك [71-125 هـ) (691 م - 743.م] عاشر خلفاء بني امية [حكم: 105- 125 هـ/724-743 م]، في عهده بلغت الإمبراطورية الإسلامية اقصى اتساعها.

وسمعت عمي يقول: لما أراد بناءه قيل له إن للنصارى أعمدة رخام مدفونة تحت الرمل، استعدوها لكنيسة بالغة، فقال لهم هشام بن عبد الملك: إما أن تظهروها، وأما أن نهدم كنيسة لد. فبني هذا الجامع على أعمدتها، فأظهروها، وهي غليظة طويلة حسنة، وأرض المغطى مفروشة بالرخام، والصحن بالحجارة المؤلفة، وأبواب المغطى من الشربين والتنوب[130]، مداخلة محفورة حسنة جداً.

وصف القدس

بيت المقدس :

ليس في مدائن الكور أكبر منها، وقصبات كثيرة أصغر منها كاصطخر وقاين والفرما.

لا شديدة البرد وليس بها حر، وقل ما يقع بها ثلج.

وسألني القاضي أبو القاسم ابن قاضي الحرمين عن الهواء بها فقلت: سجسج[131] لا حر ولا برد شديد. قال: هذا صفة الجنة.

بنيانهم حجر لا ترى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها ولا أعف من أهلها، ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها، ولا أكثر من مشاهدها.

عنبها خطير وليس لمُنتَقَعها نظير، وفيها كل حاذق وطبيب، وإليها قلب كل لبيب، ولا تخلو كل يوم من غريب.

محاسن بيت المقدس

وكنت يوماً في مجلس القاضي المختار أبي يحيى بن بهرام بالبصرة، فجرى ذكر مصر إلى أن سئلت: أي بلد أجل؟

قلت: بلدنا؟ قيل: فأيها أطيب؟ قلت: بلدنا قيل: فأيها أفضل؟ قلت: بلدنا، قيل: فأيها أحسن؟ قلت: بلدنا، قيل: فأيها أكثر خيرات؟ قلت: بلدنا قيل: فأيها أكبر؟ قلت: بلدنا.

---

[130] - الشربين شجر دائم الخضرة شكل أشجاره قمعي أو مخروطي أوراقه إبرية وقصيرة له أنواع عديدة والتَّنوب الاسم الشائع الذي يطلق على نحو 50 نوعًا من الأشجار دائمة الخضرة التي تنتمي إلى الفصيلة الصنوبرية وتنمو أشجار التنوب في النصف الشمالي للكرة الأرضية، وتوجد أنواع كثيرة منها في المناطق الرْطبة النْدية على امتداد السواحل البحرية أو منحدرات الجبال. تتخذ أشجار التنوب شكلاً مخروطياً بصورة عامة، وهي ذوات أوراق كثيفة

[131] - الهواء السجسج: المعتدل

فتعجب أهل المجلس من ذلك وقيل: أنت رجل محصل وقد أدعيت ما لا يقبل منك وما مثلك إلا كصاحب الناقة مع الحجاج.

قلت: أما قولي أجلّ، فلأنها بلدة جممت الدنيا والآخرة، فمن كان من أبناء الدنيا وأراد الآخرة وجد سوقها، ومن كان من أبناء الآخرة فدعته نفسه إلى نعمة الدنيا وجدها.

وأما طيب الهواء، فإنه لا سمٌ لبردها ولا أذى لحرها.

وأما الحسن، فلا ترى أحسن من بنيانها ولا أنظف منها ولا أنزه من مسجدها.

وأما كثرة الخيرات، فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الأغوار والسهل والجبال، والأشياء المتضادة كالأترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز.

وأما الفضل، فلأنها عرصة[132] القيامة ومنها المحشر وإليها المنشر، وإنما فضلت مكة والمدينة بالكعبة والنبي صلى الله عليه وسلم، ويوم القيامة تزفان إليها فتحوي الفضل كله.

وأما الكبر، فالخلائق كلهم يحشرون إليها، فأي أرض أوسع منها؟

فاستحسنوا ذلك وأقروا به.

عيوبها :

إلا أن له عيوباً عدة: يقال إن في التورية مكتوب بيت المقدس طشت ذهب ملىء عقارب، ثم لا ترى أقذر من حماماتها، ولا أثقل مؤونة. قليلة العلماء كثيرة النصارى، وفيهم جفاءٌ. على الرحبة والفنادق ضرائب ثقال. على ما يباع فيها رجالة على الأبواب، فلا يمكن أحداً أن يبيع شيئاً مما يرتفق به الناس إلا بها مع قلة يسار. وليس للمظلوم أنصار، والمستور مهموم، والغني محسود، والفقيه مهجور، والأديب غير مشهود، لا مجلس نظر ولا تدريس، قد غلب عليها النصارى واليهود، وخلا المسجد من الجماعات والمجالس[133].

أبوابها :

وهي أصغر من مكة وأكبر من المدينة، عليها حصن بعضه على جبل وعلى بقيته خندق، ولها ثمانية أبواب حديد: باب صهيون، باب التيه، باب البلاط، باب جب إرميا، باب سلوان، باب أريحا، باب العمود، باب محراب داود.

---

[132] - العرصة هي كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء ولعل معناها هنا الساحة

[133] - اي صلاة الجماعة ومجالس العلم

مياهها :

والماء بها واسع، ويقال ليس ببيت المقدس أمكن من الماء والأذان، قل دار ليس بها صهريج وأكثر، وبها ثلاث برك عظيمة: بركة بني إسرائيل، بركة سليمان، بركة عياض، عليها حماماتهم لها دواعٍ من الأزقة، وفي المسجد عشرون جباً متبحرة، وقلَّ حارة إلا وفيها جب مسبل[134]. غير أن مياهها من الأزقة، وقد عمد إلى وادٍ فجعل بركتان يجتمع إليهما السيول في الشتاء، وشق منهما قناة إلى البلد تدخل وقت الربيع فتملأ صهاريج الجامع وغيرها.

مسجدها :

وأما المسجد الأقصى، فهو على قرنة البلد الشرقي نحو القبلة، أساسه من عمل داود[135]، طول الحجر عشرة أذرع وأقل، منقوشة موجهة مؤلفة صلبة، وقد بنى عليه عبد الملك [بن مروان] بحجارة صغار حسان وشرفوه، وكان أحسن من جامع دمشق، لكن جاءت زلزلة في دولة بنى العباس[136] فطرحت المغطى[137] إلا ما حول المحراب، فلما بلغ الخليفة خبره قيل له: لا يفي بردّه إلى ما كان بيت مال المسلمين.

فكتب إلى أمراء الأطراف وسائر القواد، أن يبني كل واحد منهم رواقاً، فبنوه أوثق وأغلظ صناعةً مما كان. وبقيت تلك القطعة شامة فيه، وهي إلى حد أعمدة الرخام، وما كان من الأساطين المشيدة فهو محدث.

وللمغطى ستة وعشرون باباً: باب يقابل المحراب يسمى باب النحاس الأعظم مصفح بالصفر المذهب لا يفتح مصراعه إلا رجل شديد الباع قوي الذراع، عن يمينه سبعة أبواب كبار في وسطها باب مصفح مذهب، وعلى اليسار مثلهن ومن نحو الشرق أحد عشر بابا سواذج، وعلى الخمسة عشر رواق على أعمدة رخام، أخدثه عبدالله بن طاهر[138]، وعلى الصحن من الميمنة أروقة على أعمدة رخام وأساطين، وعلى المؤخر أروقة

---

[134] - ماء للعابرين والغرباء أي ماء السبيل

[135] - هذا من الخرافات التي نفتها الحفريات الأثرية

[136] - المقصود الزلزال الشهير الذي دمر بلاد الشام قاطبه عام 749م، ومن غرائب الصدف انه العام الأول من حكم العباسيين لبلاد الشام

[137] - اي سقط الجزء المسقوف من المسجد

[138] - عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب قلده الخليفة العباسي المأمون مصر وافريقية، ثم خراسان، ويبدو أن بيت المقدس كانت من جملة الأراضي التي حكمها لصالح العباسيين

آزاج من الحجارة، وعلى وسط المغطى جمل[139] عظيم خلف قبة حسنة، والسقوف كلها إلا المؤخر ملبسة بشقاق الرصاص، والمؤخر مرصوص بالفسيفساء الكبار، والصحن كله مبلط، وسطه دكة مثل مسجد يثرب يصعد إليها من الأربع جوانب في مراقٍ واسعة.

قباب المسجد الثمانية

وفي الدكة أربع قباب: قبة السلسلة، قبة المعراج، قبة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه الثلاث لطاف ملبسة بالرصاص على أعمدة رخام بلا حيطان.

قبة الصخرة

وفي الوسط قبة الصخرة[140] على بيت مثمن بأربعة أبواب كل باب يقابل مرقاة: باب القبلي، باب إسرافيل، باب الصور، باب النساء، يفتح إلى الغرب، جميعها مذهبة في وجه كل واحد باب ظريف من خشب التنوب مداخل[141] حسن، أمرت بهن أم المقتدر بالله[142]، وعلى كل باب صفة مرخمة بالتنوبية تطبق على الصفرية من خارج، وعلى أبواب الصُّفاف أبواب أيضاً سواذج. داخل البيت ثلاثة أروقة دائرة على أعمدة معجونة، أجل من الرخام وأحسن، لا نظير لها، قد عقدت عليها أروقة لاطية [منخفضة] داخلها رواق آخر مستدير على الصخرة، لا مثمن على أعمدة معجونة بقناطر مدورة، فوق هذه منطقة متعالية في الهواء فيها طيقان كبار، والقبة من فوق المنطقة طولها عن القاعدة الكبرى مع السفود[143] في الهواء مائة ذراع، ترى من البعد فوقها سفود حسن طول قامة وبسطة.

والقبة على عظمها ملبسة بالصفر المذهب، وأرض البيت وحيطانه مع المنطقة من داخل وخارج على ما ذكرنا من جامع دمشق[144].

والقبة ثلاث سافات: الاولى من ألواح مزوقة، والثانية من أعمدة الحديد قد شبكت لئلا تميلها الرياح، ثم الثالثة من خشب عليها الصفائح وفي وسطها طريق إلى عند

---

[139] - اي سقف على شكل جملون، وهو مشتق من الكلمة السريانية جملا التي تعني البعير بالعربية، ولفظة الجمل العربية اصلاً مقبوسة عن السريانية- الارامية

[140] - يتحدث المقدسي هنا عن ان قبة الصخرة هي القبة الثامنة من قباب المسجد الأقصى

[141] - اي فيه زخرفات متداخلة عكس الأبواب السواذج الخالية من اي زخرفة

[142] - ام المقتدر بالله العباسي، اسمها شغبه كانت من جواري المعتضد بالله ابي جعفر، واعتقها وتزوجها

[143] - هو قضيب الحديد، ويطلق عادة على الحديدة التي يشوى بها اللحم

[144] - اي ان ارضه مبلطة بالرخام الأبيض، وحيطانه بالرخام المجزع، ثم الى السقف بالفسيفساء الملونة

السفود، يصعدها الصناع لتفقدها ورمها، فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة وتلألأت المنطقة ورأيت شيئاً عجيباً، وعلى الجملة لم أر في الإسلام ولا سمعت أن في الشرك[145] مثل هذه القبة.

ويدخل إلى المسجد[146] من ثلاثة عشر موضعاً بعشرين باباً: باب حطة، بابي النبي صلى الله عليه وسلم، أبواب محراب مريم، بابي الرحمة، باب بركة بني إسرائيل، أبواب الأسباط، أبواب الهاشميين، باب الوليد، باب إبراهيم، باب أم خالد، باب داود.

وفيه من المشاهد: محراب مريم، وزكريا، ويعقوب، والخضر، ومقام النبي، وجبرئيل، وموضع النمل، والنور، والكعبة، والصراط، متفرقة فيه.

وليس على الميسرة أروقة، والمغطى لا يتصل بالحائط الشرقي، ومن أجل هذا يقال لا يتم فيه صف أبداً، وإنما ترك هذا البعض لسببين: أحدهما قول عمر اتخذوا في غربي هذا المسجد مصلى للمسلمين، فتركت هذه القطعة لئلا يخالف. والثاني أنهم لو مدوا المغطى إلى الزاوية لم تقع الصخرة حذاء المحراب، فكرهوا ذلك والله أعلم.

وطول المسجد ألف ذراع، بذراع الملك الأشباني[147]، وعرضه سبعمائة، وفي سقوفه من الخشب أربعة آلاف خشبة، وسبعمائة عمود رخام، وعلى السطح خمسة وأربعون ألف شقفة رصاص، وحجم الصخرة ثلاثة وثلاثون ذراعاً في سبعة وعشرين، والمغارة التي تحتها تسع تسعاً وستين نفساً.

وكانت وظيفته في كل شهر مائة قسط زيت، وفي كل سنة ثمان مائة ألف ذراع حصر، وخدامه مماليك له أقامهم عبد الملك [بن مروان] من خمس الأسارى، ولذلك يسمون الأخماس لا يخدمه غيرهم ولهم نوب يحفظونها.

سلوان:

محلة في ربض[148] المدينة تحتها عين عذيبية تسقي جناناً عظيمة أوقفها عثمان بن عفان على ضعفاء البلد، تحتها بئر أيوب، ويزعمون أن ماء زمزم يزور ماء هذه العين ليلة عرفة.

---

(145) - يقصد انه لا يوجد في بلاد المسلمين ولا في بلاد غير المسلمين مثل قبة الصخرة

(146) - اي مسجد قبة الصخرة

(147) - مقياس قديم يعتبر الأطول بين الأذرع، والإشباني نسبة إلى إشبانيا وهي التسمية القديمة لأسبانيا.

(148) - الربض هو عكس القلب اي الأحياء التي تقع خارج سور المدينة او ما يسمى اطراف المدينة

وادي جهنم :

على قرنة المسجد إلى آخره قِبَل الشرق فيه بساتين وكروم وكنائس ومغائر وصوامع ومقابر وعجائب ومزارع. وسطه كنيسة على قبر مريم، ويشرف عليه مقابر فيها شداد بن أوس الخزرجي[149] وعبادة بن الصامت[150].

جبل زيتا[151]:

مطل على المسجد شرقي هذا الوادي، على رأسه مسجد لعمر نزله أيام فتح البلد، وكنيسة على الموضع الذي صعد منه عيسى عليه السلام، وموضع يسمونه الساهرة[152] وحدثونا عن ابن عباس أن الساهرة هي أرض القيامة بيضاء لم يسفك عليها دم.

بيت لحم :

قرية على طرف فرسخ من نحو حبري [الخليل] بها ولد عيسى، وثَمَّ كانت النخلة، وليس يرطب النخيل بهذا الرستاق، ولكن جعلت لها آية، وبها كنيسة[153] ليس بالكوره مثلها.

حبري[154]:

هي قرية إبراهيم الخليل عليه السلام، فيها حصن منيع يزعمون أنه من بناء الجن من حجارة عظيمة منقوشة، وسطه قبة من الحجارة إسلامية على قبر إبراهيم وقبر إسحاق قدام في المغطى، وقبر يعقوب في المؤخر، حذاء كل نبي امرأته، وقد جعل الحير[155] مسجداً وبني حوله دور للزوار، واختلطت به العمارة، ولهم قناة ضعيفة.

---

(149) - شداد بن اوس بن ثابت الخزرجي ابو عبد الرحمن (توفي 58 هـ)، شهد بدراً، توفي بفلسطين ودفن ببيت المقدس

(150) - عبادة بن الصامت بن قيس بن اصرم بن فهر بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف الخزرجي الأنصاري كنيته ابو الوليد روي حوالي مائة وواحد وثمانون حديث. شهد بيعة العقبة الأولى والثانية، وكان نقيباً علي قوافل بني عوف بن الخزرج، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين ابي مرثد الغنوي، وشهد بدراً واحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على بعض الصدقات. توفى سنة اربع وثلاثين للهجرة وهو ابن اثنان و سبعين عاما والشائع انه دفن بالرملة

(151) - زيتا هي الصيغة الأرامية للزيتون والمقصود هنا جبل الزيتون

(152) - الساهرة اسم احد أبواب القدس المعروفة

(153) - كنيسة المهد

(154) - منحوتة من حبرون وهو الاسم الأرامي القديم لمدينة الخليل

(155) - هو السور الذي يحيط بقطعة ارض مكشوفة

وهذه القرية إلى نحو نصف مرحلة من كل جانب قرى وكروم وأعناب وتفاح، يسمى جبل نضرة، لا يرى مثله ولا أحسن من فواكه عامتها، تحمل إلى مصر وتنشر.

وفي هذه القرية ضيافة دائمة، وطباخ وخباز وخدام مرتبون، يقدمون العدس بالزيت لكل من حضر من الفقراء. ويدفع إلى الأغنياء إذا أخذوا. ويظن أكثر الناس أنه من قرى إبراهيم[156]، وإنما هو وقف تميم الداري[157] وغيره، والأفضل عندي التورع عنه.

وعلى فرسخ من حبري، جبل صغير مشرف على بحيرة صغر[158] وموضع قريات لوط[159]، ثم مسجد بناه أبو بكر الصباحي فيه موضع مرقد إبراهيم عليه السلام، قد غاص في القُفّ[160] نحو ذراع. يقال إن إبراهيم لما رأى قريات لوط في الهواء رقد ثُمَّ وقال: أشهد أن هذا هو الحق اليقين.

حدود القدس

وحد القدس ما حول إيليا[161] إلى أربعين ميلاً يدخل في ذلك: القصبة ومدنها، واثنا عشر ميلاً في البحر، وصغر ومآب، وخمسة أميال من البادية، ومن قبل القبلة إلى ما وراء الكسيفة[162] وما يحاذيها، ومن قبل الشمال تخوم نابلس.

وهذه الأرض مباركة كما قال الله تعالى، مشجرة الجبال زريعة السهول من غير سقي ولا أنهار، وكما قال الرجلان لموسى بن عمران وجدنا بلداً يفيض لبناً وعسلاً.

بيت جبريل :

مدينة سهلية جبلية رستاقها الداروم[163] فيه مقاطع الرخام، وميرة القصبة

---

(156) - القرى هي إكرام الضيف وإبراهيم هنا هو الحرم الإبراهيمي أي من ضيافة الحرم الإبراهيمي

(157) - صحابي من فلسطين مشهور قدم إلى الرسول على رأس وفد من لخم وجذام وأنبأه بحديث الجساسة المشهور، وقد أقطعه الرسول صلى الله عليه وسلم الخليل، بكتاب مشهور يسمى نطية تميم

(158) - البحر الميت

(159) - تسمى الآن خربة ياقين وفيها مسجد يقع على بعد نحو ميلين في الجنوب من قرية بني نعيم

(160) - القف هو المرتفع من الأرض

(161) - اسم القدس قبل الفتح الإسلامي، وقد ورد اسمها هكذا في نص العهدة العمرية، وأصل الاسم يعود إلى القرن الأول الميلادي عندما أطلق الإمبراطور الروماني هدريان (hadrian) اسم إيليا كابيتولينا على المستعمرة الرومانية التي أنشأها مكان المدينة المدمر.

(162) - بلدة فلسطينية في صحراء النقب ما تزال قائمة إلى اليوم

(163) - سهل ساحلي خصب يقع في جنوب فلسطين والداروم كلمة سامية قديمة بمعنى الجنوب

وخزانـة الكورة، بلد الفوال والرخـاء، ذات ضياع جليلـة إلا أنها قد خفت، وهـي كثيرة المخنثين.

غزة :

كبيرة على جادة[164] مصر وطرف البادية وقرب البحر، بها جامع حسن، وفيها أثر عمر بن الخطاب، ومولد الشافعي، وقبر هاشم بن عبد مناف.

ميماس :

على البحر، حصينة صغيرة تنسب إلى غزة[165].

عسقلان :

على البحر، جليلة كثيرة المحارس والفواكه ومعدن الجميز. جامعها في البزازين قد فرش بالرخام، بهية فاضلة طيبة حصينة، قزها فائق، وخيرها دافق، والعيش بها رافق، أسـواق حسنة ومحـارس نفيسة إلا أن ميناءهـا رديء، وماءهـا عـذي [صاف] ودلمها[166] مؤذٍ.

يافة :

علـى البحـر، صـغيرة إلا أنهـا خزانـه فلسطين وفرضـة الرملة، عليها حصن منيـع بأبواب محددة، وباب البحر كله حديد، والجامع مشرف على البحـر[167] نـزه، وميناؤهـا جيد.

أرسوف :

أصغر من يافة، حصينه عامرة بها منبر حسن بني للرملة، ثم كان صغيراً فحمل إلى أرسوف.

---

[164] - الجادة هي الطريق

[165] - حتى الآن توجد في مدينة غزة منطقة قرب الميناء اسمها منطقة ميماس، وقد عثر فيها على آثار كثيرة منها كنيسة بيزنطية، وثمة باب من أبواب غزة القديمة يسمى باب ميماس وهو الباب الغربي الذي يتجه نحو البحر.

[166] - الدلم من الزواحف يشبه الحية وهو مؤذٍ (القاموس المحيط)

[167] - مايزال جامع البحر حتى الآن احد اهم معالم يافا الأثرية التاريخية

قيسارية :

ليس على بحر الروم بلد أجل ولا أكثر خيرات منها، تفور نعماً وتتدفق خيرات، طيبة الساحة، حسنة الفواكه، عليها حصن منيع وريض عامر، قد أدير عليه الحصن، شربهم من آبار وصهاريج ولها جامع حسن.

نابلس :

في الجبال، كثيرة الزيتون، يسمونها دمشق الصغرى، وهي في وادٍ قد ضغطها جبلان. سوقها من الباب إلى الباب، وآخر إلى نصف البلد، والجامع وسطها، مبلطة نظيفة، لها نهر جارٍ بناؤهم حجارة، ولهم دواميس[168] عجيبة.

أريحاء :

هي مدينة الجبارين[169]، وبها الباب الذي ذكره الله لبني إسرائيل، وهي معدن النيل والنخيل[170]، رستاقها الغور وزروعهم تسقى من العيون شديدة الحر، معدن الحيات والعقارب، أهلها سمر وسودان، كثيرة البراغيث، غير أن ماءها أخف ماءٍ في الإسلام، كثيرة الموز والأرطاب والريحان.

عمان :

على سيف البادية، ذات قرىً ومزارع، رستاقها البلقاء معدن الحبوب والأغنام. بها عدة أنهار وأرحية يديرها الماء[171].

ولها جامع ظريف بطرف السوق مفسفس الصحن، وقد قلنا إنه شبه مكة، وقصر جالوت على جبل يطل عليها، وبها قبر أوريا[172] عليه مسجد، وملعب سليمان[173] رخيصة الأسعار، كثيرة الفواكه، غير أن أهلها جهال، وإليها الطرق الصعبة.

---

[168] - كهوف او انفاق مقبوة .

[169] - ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ المائدة 22

[170] - اي مصدر صبغة النيلة والتمور.

[171] - ارحية جمع رحى وهنا المقصود المطاحن المائية للحبوب

[172] - اوريا الحثي الذي تسبب الملك داود بقتله طمعاً في الزواج من امراته بث شبع (بنت السبع) كما يرد في سفر صموئيل، وكان اعداء داود في ذلك الوقت العمونيين

[173] - المقصود مدرج المدينة، وكان من عادة رحالة العصور القديمة أن ينسبوا كل بناء كبير للملك سليمان، وهذا يقع في باب الخرافات والأوهام

الرقيم :

قرية على فرسخ من عمان[174]، على تخوم البادية فيها مغارة لها بابان صغير وكبير، يزعمون أن من دخل الكبير ولم يمكنه الدخول من الصغير فهو ممذر (ا)[175].

وفي المغارة ثلاثة قبور، وهي التي حدثنا أبو الفضل محمد بن منصور قال: حدثنا أبو بكر بن سعيد قال: حدثنا الفضل بن حماد قال: حدثنا ابن أبي مريم قال: أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة قال: أخبرني نافع عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بينما نفر ثلاثة يتماشون إذ أخذهم المطر فمالوا إلى غار في الجبل، فانحطت إلى فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم.

فقال بعضهم لبعض انظروا أعمالاً عملتموها لله عز وجل صالحة فادعوا الله بها لعله يفرجها . فقال أحدهم: اللهم كان لي والدان شيخان كبيران ولي صبية صغار كنت أرعى عليهم، فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالدي فسقيتهما قبل ولدي وأنه نابني السخر يوماً[176] فلم آت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب، فقمت عند رأسيهما أكره أن أوقظهما من نومهما وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون فلم نزل كذلك حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا فرجةً نرى منها السماء. ففرج الله تعالى فرجة رأوا منها السماء.

وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال، فطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فسعيت حتى جمعت مائة دينار فجئتها بها، فلما وقعت بين رجليها قالت: يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها فإن كنت تعلم إني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا منها فرجاً. ففرج الله لهم فرجة.

وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيراً بفَرَقٍ [أي بقليل] من أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي فعرضت عليه حقه فتركه ورغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً وراعيها، فجاءني وقال: اتق الله ولا تظلمني وأعطني حقي. فقلت: اذهب إلى تلك البقر وراعيها فخذها، فقال اتق الله ولا تهزأ بي. فقلت: إني لا اهزأ بك خذ تلك البقر وراعيها فأخذها وانطلق بها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج ما بقي. ففرج الله عنهم.

---

[174] تعرف باسم «الرجيب» على عادة بعض العرب في قلب حروف معينة، وفيها آثار يتداول الناس انها قبور أهل الكهف

[175] - يذكر هذا الموقع اسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار عند حديثه عن مسجد الرقيم ويقول إن من لا يستطيع دخول شق في هذا الكهف هو ابن زنا. وممزير باللغة العبرية ابن زنا.

[176] - أي طالتني السخرة وهي عمل مجاني كانت الدول تفرضه على العوام، وكان يشبه الاعتقال التعسفي

قرى كالمدن :

ولهذه الكورة قرى جليلة ذات منابر أعمر وأجل من أكثر مدن الجزيرة، وهي مذكورة، غير أنه لما لم يكن لها قوة المدن في الآنين ولا ضعف القرى في المعمول، وتردد أمرها بين الرتبتين وجب أن نستظهر بذكرها ونبين مواضعها، منها :

لد :

وهي على ميل من الرملة، بها جامع يجمع به خلق كثير من أهل القصبة وما حوله من القرى، وبها كنيسة عجيبة على بابها يقتل عيسى الدجال[177].

كفرسابا :

كبيرة بجامع على جادة دمشق[178].

عاقر :

قرية كبيرة بها جامع كبير لهم رغبة في الخير وليس مثل خبزهم على جادة مكة[179].

يبنا :

بها جامع نفيس معدن التين الدمشقي الفائق.

عمواس :

ذكروا أنها كانت القصبة في القديم[180]. وإنما تقدموا إلى السهل والبحر من أجل الآبار لأن هذه على حد الجبل.

كفرسلام :

من قرى قيسارية، كبيرة آهلة بها جامع على الجادة.

---

(177) - تقع مدينة اللد في الجنوب الشرقي من يافا وعلى مسيرة 13 ميلا، كما وتقع في الشمال الشرقي من الرملة وعلى بعد ثلاثة اميال هي مدينة قديمة جداً

(178) - كفر سابا تبعد 10 كم عن مدينة تل ابيب و5 كيلومترات عن مدينة قلقيلية الفلسطينية

(179) - تقع قرية عاقر إلى الجنوب الغربي من مدينة الرملة وتبعد عنها 9كم وترتفع 50 م عن سطح البحر والمرجح انها تحريف لكلمة (عقرو) السامية بمعنى استئصال وعاقر سميت بذلك لأنها لا تنبت شيئاً وقرية عاقر بنيت على بقعة (أكرون) الرومانية

(180) - اي عاصمة جند فلسطين

رباطات القدس

ولهذه القصبة رباطات على البحر، يقع بها النفير وتقلع إليها شلنديات الروم وشوانيهم[181] معهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار، وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون إليهم في الرسالات، ويحمل إليهم أصناف الأطعمة وقد ضج بالنفير لما تراءت مراكبهم، فإن كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط، وإن كان نهار دخنوا.

ومن كل رباط إلى القصبة عدة منابر شاهقة، قد رتب فيها أقوام فتوقد المنارة التي للرباط، ثم التي تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة إلا وقد أنفر بالقصبة، وضرب الطبل على المنارة، ونودي إلى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة، واجتمع أحداث الرساتيق، ثم يكون الفداء، فرجل يشتري رجلاً وآخر يطرح درهماً أو خاتماً حتى يشترى ما معهم.

ورباطات هذه الكورة التي يقع بهن الفداء: غزة، ميماس، عسقلان، ماحوز[182] أزدود [أسدود]، ماحوز يبنا، يافة، أرسوف.

صغر:

أهل الكورتين يسمونها صقر[183]، وكتب مقدسي إلى أهله: من سقر السفلى إلى الفردوس الأعلى. وذلك أنه بلد قاتل للغرباء ردي الماء، ومن أبطأ عليه ملك الموت فليرحل إليها، ولا أعرف في الإسلام لها نظيراً في هذا الباب.

وقد رأيت بلداناً وبيئة، ولكن ليس كهذه، أهلها سودان غلاظ، وماؤها حميم، وكأنها جحيم، إلا أنها البصرة الصغرى، والمتجر المربح، وهي على البحيرة المقلوبة، وبقية مدائن لوط، وإنما نجت لأن أهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة، والجبال منها قريبة.

مآب:

في الجبل، كثيرة القرى واللوز والأعناب، قريبة من البادية، ومؤتة من قراها وثَم قبر جعفر الطيار وعبدالله بن رواحة.

---

(181) - الشلنديات جمع شلندي وهي سفن كبيرة الحجم تستخدم لنقل السلع والبضائع وكانت معروفة عند البيزنطيين وهي مأخوذة عن اليونانية وتكتب باللاتينية helandium اما الشواني فهي جمع شيني او شينية او شَوْنَة وكانت تعرف ايضاً بالأغرية لأنها كانت تطلى بالقار ولها قلوع بيضاء وهي مراكب كبيرة وطويلة تجدف بمائتين واربعين مجدافاً ومزودة بأبراج للدفاع والهجوم ومنها تطلق قنائف النفط على العدو [الملاحة وعلوم البحار عند العرب، انور عبد العليم، عالم المعرفة الكويتية العدد 13 ص 94-95]

(182) - المواحيز جمع ماحوز النواحي

(183) - صغر او زغر، مدينة مندثرة تقع في غور الصافي الآن

أذرح :

مدينة متطرفة حجازية شامية[184]، وعندهم بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده، وهو مكتوب في أديم.

ويلة :

مدينة على طرف شعبة بحر الصين[185] عامرة جليلة ذات نخيل وأسماك، فرضة فلسطين وخزانة الحجاز.

والعوام يسمونها أيلة، وأيلة قد خربت على قرب منها، وهي التي قال الله تعالى ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾[186].

مدين :

على تخوم الحجاز في الحقيقة، لأن جزيرة العرب كلما دار عليه البحر، ومدين في هذه الخطة، وثمَّ الحجر الذي رفعه موسى عليه السلام حين سقى غنم شعيب، والماء بها غزير وأرطالهم ورسومهم شامية.

وفي ويلة تنازع بين الشاميين والحجازيين والمصريين، كما في عبادان، وإضافتها إلى الشام أصوب، لأن رسومهم وأرطالهم شامية، وهي فرضة فلسطين ومنها يقع جلائبهم.

تبوك :

مدينة صغيرة بها مسجد النبي صلى الله عليه وسلم.

[مجتمع الشام وفلسطين]

مناخ :

هو إقليم متوسط الهواء إلا وسطه من الشراة إلى الحولة، فإنه بلد الحر والنيل والموز والنخيل.

وقال لي يوماً غسان الحكيم ونحن بأريحاء: ترى هذا الوادي؟ قلت: بلى. قال: هو

---

(184) - الآن اذرح قرية اردنية ضمن قضاء اذرح، في محافظة معان جنوب المملكة الأردنية الهاشمية

(185) - اي البحر الأحمر واسمه بحر القلزم

(186) - سورة الأعراف، الآية 163.

يمد إلى الحجاز ثم يخرج إلى اليمامة ثم إلى عُمان وهجر ثم إلى البصرة ثم إلى بغداد ثم يصعد إلى ميسرة الموصل إلى الرقة. وهو وادي الحر والنخيل.

وأشد هذا الإقليم برداً بعلبك وما حولها، ومن أمثالهم، قيل للبرد: أين نطلبك؟ قال: بالبلقاء، قيل: فإن لم نجدك؟ قال بعلبك بيتي.

وهو إقليم مبارك، بلد الرخص والفواكه والصالحين، وكلما علا منه نحو الروم كان أكثر أنهاراً وثماراً وأبرد هواءً، وما سفل منه فإنه أفضل وأطيب وألذ ثماراً وأكثر نخيلاً.

وليس فيه نهر يُسافر فيه إنما يُعبر.

عقائد وأديان :

قليل العلماء، كثير الذمة والمجذمين، ولا خطر فيه للمذكرين، والسامرة[187] فيه من فلسطين إلى طبرية ولا تجد فيه مجوسياً ولا صابئاً.

مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة وسنة، وأهل طبرية ونصف نابلس وقَدَس وأكثر عمّان شيعة، ولا ماء فيه لمعتزلي إنما هم في خفية.

وببيت المقدس خلق من الكرامية[188]، لهم خوانق ومجالس، ولا ترى به مالكياً ولا داودياً[189] وللأوزاعية[190] مجلس بجامع دمشق.

والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث والفقهاء شفعوية[191]، وأقل قصبة أو بلد ليس فيه حنفي، وربما كانت القضاة منهم، فإن قيل لم لَم يقل: والعمل فيه على مذهب الشافعي والصدور، ثمَّ شفعوية؟ قيل له: هذا كلام من لا تمييز له، لأن مذهب الشافعي الجهر بالبسملة والقنوت في الفجر، ولا نقنت إلا في النصف الأخير من شهر رمضان في الوتر، وغير ذلك ما لم يكن يستعمله أهل الشام وينكرونه. ألا ترى أن ملكهم لما أمر بالجهر بالبسملة بطبرية كيف تظلموا منه إلى كافور الأخشيدي، واستبشعوا ما فعله.

---

[187] - ما يلفت النظر ان المقدسي لا ينكر وجود يهود تلموديين في فلسطين بل فقط من السمرة

[188] - الكرامية فرقة عقدية إسلامية اسسها محمد بن كرام السجستاني المتوفى سنة 255 هـ وباسمه سمّيت، وهي من هذه الفرقة تقول بالتجسيم تلقاها الهروي الأنصاري ثمّ احتضنها ابن تيمية واعتقد بكثير من عقائدها. (راجع: كتاب الملل والنحل للشهرستاني، طبقات الشافعية، الفرق بين الفرق)

[189] - الداوودية، اصحاب داود بن علي الأصفهاني، وهم فرقة من من المذهب الثالث الذي يسمى اصحاب الحديث إلى جانب المالكية، والشافعية والحنبلية (راجع الملل والنحل للشهرستاني)

[190] - المذهب الأوزاعي: نسبة الى عبد الرحمن بن محمد الأوزاعي اليمني المتوفى سنة 157 هـ والذي كان هو الآخر من ابرز المذاهب التي كانت تتمتع بقاعدة عريضة، وقد اختفى هو الآخر سنة 302 هـ

[191] - اي ان القضاء وفقه المعاملات كانت تتم على المذهب الشافعي

واليوم أكثر العمل على مذاهب الفاطمي[192]، ونحن نذكرها مع رسومهم في إقليم المغرب إن شاء الله تعالى.

والغالب فيه من القراءات حروف أبي عمرو[193]، إلاّ بدمشق فإنه لا يؤم في الجامع إلا من يقرأ لابن عامر[194]، وهي شائعة فيهم مختارة عندهم، وقد فشت قراءة الكسائي[195] في الإقليم ويستعملون السبع ويجتهدون في ضبطها .

تجارة ومحاصيل :

والتجارات به مفيدة، يرتفع من فلسطين الزيت والقطين[196] والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفوط.

ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العينوني والدوري غاية، والتفاح وقضم قريش[197]، الذي لا نظير له، والمرايا وقدور القناديل والإبر.

ومن أريحاء نيل غاية.

ومن صغر وبيسان النيل والتمور.

ومن عمان الحبوب والخرفان والعسل.

ومن طبرية شقاق المطارح[198] والكاغد[199] وبز[200].

ومن قدس ثياب المنيرة والبلميسية والحبال.

ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات.

ومن مآب قلوب اللوز.

---

(192) - من الواضح ان المقدسي شهد تحول فقه المعاملات في إقليم الشام إلى الفقه الشيعي الفاطمي لأنه عاصر قيام دولة الفاطميين في المشرق العربي

(193) - يقول ابن كثير في البداية والنهاية في ترجمة الإمام ابو عمرو البصري: كان ابو عمرو علاّمة زمانه في القراءات والنحو والفقه ومن كبار العلماء العاملين

(194) - القارئ عبد الله بن عامر اليحصبي الشامي المتوفى سنة 118هـ هو اقرب القراء السبعة إلى عهد الصحابة

(195) - هو ابو الحسن، علي بن حمزة بن عبد الله الكسائي الأسدي , إمام نحاة الكوفة انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد حمزة الزيات، و بلغ عند هارون الرشيد منزلة كبيرة

(196) - القَطين كالقطاني كالفول والحمص والفاصولياء والبازلاء واللوبياء، وإذا ضمت القاف وشددت الطاء مع الفتح وسكون الياء (القُطَّيْنُ) فهو التين المجفف

(197) - شجر من الفصيلة الصنوبرية

(198) - القماش الخاص بالطراريح او المفارش

(199) - نوع من الورق انتشر في عهد هارون الرشيد كان يصنع من القنب الأبيض

(200) - في لسان العرب :البز من الثياب؛ أمتعة البزاز والبزاز: بائع البز.

ومن بيسان الرز.

ومن دمشق المصور والبلعيسي وديباج ودهن بنفسج، دون الصفريات والكاغد والجوز والقطين والزبيب.

ومن حلب القطن والثياب والأشنان والمغرة.

ومن بعلبك الملابن.

ولا نظير لقطين وزيت الأنفاق، وحواري وميازر الرملة، ولا لمنقة وقضم قريش وعينوني ودوري وترياق وترذوغ وسبح بيت المقدس.

فواكه وخضار :

وأعلم إنه قد اجتمع بكورة فلسطين ستة وثلاثون شيئاً ولا تجتمع في غيرها. فالسبعة الأولى لا توجد إلا بها والسبعة الثانية غريبة في غيرها، والاثنان والعشرون لا تجتمع إلا بها.

وقد يجتمع أكثرها في غيرها مثل قضم قريش، والمعنقة، والعينوني، والدوري، وانجاص الكافوري، وتين السباعي والدمشقي، والقلقاس، والجميز، والخرنوب، والعكوب، والعناب، وقصب السكر، والتفاح الشامي، والرطب، والزيتون، والأترج، والنيل، والراسن، والنارنج، واللفاح، والنبق، والجوز، واللوز، والهليون، والموز، والسماق، والكرنب، والكمأة، والترمس، والطري، والثلج ولبن الجواميس، والشهد، وعنب العاصمي، والتين التمري.

وأما القنبيط فقد يرى مثله، غير أن له طعماً آخر، وقد ترى الخس، غير أنه في جملة البقل، إلا بالأهواز فإنه غاية، ويفرد عن البقل أيضاً بالبصرة.

مكاييل وأوزان :

وأما المكاييل، فلأهل الرملة القفيز والويبة والمكوك والكيلجة، فالكيلجة نحو صاع ونصف، والمكوك ثلاث كيالج، والويبة مكوكان، والقفيز أربع ويبات.

وينفرد أهل إيليا بالمدى وهو ثلثا القفيز، وبالقَبُّ وهو ربع المدى، ولا يستعمل المكوك إلا في كيل السلطان.

ومدى عمان ست كيالج، وقفيزهم نصف كيلجة، وبه يبيعون الزبيب والقطين.

وقفيز صور مدى إيليا، وكيلجتهم صاع.

والأرطال من حمص إلى الجفار[201] ستمائة، غير أنه يتفاوت فأملاه رطل عكا، وأزله الدمشقي، وأوقيتهم من خمسين إلى بضع وأربعين. وكل رطل اثنا عشر أوقية، ورطل قنسرين ثلثا هذا.

والسنج متقاربة: الدرهم ستون حبة، وحبتهم شعيرة واحدة.

والدانق عشر حبات.

والدينار أربعة وعشرون قيراطاً.

والقيراط ثلاث شعيرات ونصف.

طقوس وأعياد:

ورسومهم إنهم يقدون القناديل في مساجدهم على الدوام، يعلقونها بالسلاسل مثل مكة، وفي كل قصبة بيت مالٍ بالجامع معلق على أعمدة، وبين المغطى والصحن أبواب إلا أريحاء.

ولا ترى الحصى إلا في صحن جامع طبرية والمناير [المآذن] مربعة، وأوساط سقوف المغطى مجملة وعلى أبواب الجوامع.

وفي الأسواق مطاهر. ويجلسون بين كل سلامين من التراويح، وبعض يوترون بواحدة، وكان وترهم في القديم ثلاثاً، وفي أيامي أمر أبو إسحاق المرزوي حتى قطعوه بإيليا، وإذا قام إلى كل ترويحة نادى منادى الصلاة رحمكم الله. ويصلون بإيليا ست ترويحات، والمذكرون به قصاص، ولأصحاب أبي حنيفة بالمسجد الأقصى مجلس ذكر يقرؤون في دفتر، وكذلك الكرامية في خوانقهم. وكان الحراس يهللون بعد صلاة الجمعة ويجلس الفقهاء بين الصلاتين وبين العشائين وللقراء مجالس في الجوامع.

ومن أعياد النصارى التي يتعارفها المسلمون ويقدرون بها الفصول: الفصح وقت النيروز.

والعنصرة وقت الحر.

والميلاد وقت البرد.

وعيد بربارة وقت الأمطار.

ومن أمثال الناس إذا جاء عيد بربارة فليتخذ البناء زماره يعني فليجلس في البيت.

---

(201) - منطقة تقع إلى الجنوب من غزة وإلى شمال سيناء من مدنها رفح والعريش

والقلندس[202]، ومن أمثالهم إذا جاء القلندس فتدفأ واحتبس.

وعيد الصليب وقت قطاف العنب.

وعيد لد وقت الزرع.

وشهورهم رومية[203]: تشرين الأول، والثاني، كانون الأول، والثاني، شباط، آذار، نيسان، آيار، حزيران، تموز، آب، إيلول.

وأقل ما ترى به فقيهاً له بدعة، أو مسلماً له كتابة، إلا بطبرية فإنها ما زالت تخرج الكتاب، وإنما الكتبة به وبمصر نصارى، لأنهم اتكلوا على لسانهم فلم يتكلفوا الأدب كالأعاجم.

وكنت إذا حضرت مجلس قاضي القضاة ببغداد أخجل من كثرة ما يلحن، ولا يرون ذلك عيباً، وأكثر الجهابذة والصباغين والصيارفة والدباغين بهذا الإقليم يهود، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى.

واعلم أن خمساً في خمسة مواضع من الإسلام حسن: رمضان بمكة، وليلة الختمة بالمسجد الأقصى، والعيدين بصقلية، ويوم عرفة بشيراز، ويوم الجمعة ببغداد، وأيضاً ليلة النصف من شعبان بإيليا، ويوم عشوراء بمكة حسن.

ألبسة وأطعمة :

ولهم تجمل، يلبسون الأردية كل عالم وجاهل، ولا يتخففون في الصيف، إنما هي نعال الطاق.

وقبورهم مسنمة، ويمشون خلف الجنائز، ويُسلُون الميت، ويخرجون إلى المقابر لختم القرآن ثلاثة أيام إذا مات ميت، ويكشفون المماطر، ولا يقورون الطيالسة[204]، ولا حلة البزازين.

بالرملة حمر مصرية بسروج، ولا يركب به الخيل إلا أمير أو رئيس، ولا يتدرع إلا أهل القرى والكتبة.

ولباس القرياتيين [القرويين] برستاق إيليا ونابلس كساء واحد فحسب بلا سراويل.

---

[202] - يذكر المسعودي في مروج الذهب أن القلندس هو اليوم الأول في السنة الميلادية وبذلك يكون عيد راس السنة الميلادية

[203] - في الحقيقة هذه شهور سريانية آرامية وليست رومية

[204] - جمع طيلسان وهو لباس يشبه الشال لكن كبير.

ولهم الأفرنة، وللقرياتيين الطوابين[205] تنور في الأرض صغير، قد فرش بالحصى، فيوقد الزبل حوله وفوقه، فإذا أحمر طرحت الأرغفة على الحصى.

وبه طباخون للعدس والبيسار[206] ويقلون الفول المنبوت بالزيت ويسلقونه ويباع مع الزيتون.

ويملحون الترمس ويكثرون أكله.

ويصنعون من الخرنوب ناطفاً يسمونه القبيط ويسمون ما يتخذون من السكر ناطفاً ويصنعون زلابية في الشتاء من العجين غير مشبكة وعلى أكثر هذه الرسوم أهل مصر وعلى أقلها أهل العراق وأثور.

معادن وحجارة :

وبه معادن حديد في جبال بيروت، وبحلب مغرة جيدة، وبعمان دونها، وبه جبال حمر يسمى ترابها السمقة[*]، وهو تراب رخو، وجبال بيض تسمى الحوارة[**]، فيه أدنى صلابة يبيض به السقوف ويطين به السطوح.

وبفلسطين مقاطع حجارة بيض، ومعدن للرخام ببيت جبريل، وبالأغوار معادن كبريت وغيره. ويرتفع من البحيرة المقلوبة ملح منثور.

وخير العسل ما رعى السعتر بإيليا وجبل عاملة. وأجود المري[209] ما عمل بأريحاء.

وقد ذكرنا أكثر المشاهد في عنوان الإقليم، وأن ذكرنا مواضعها طال الكتاب، غير أن أكثرها بإيليا ثم بسائر فلسطين ثم بالأردن.

مياه وأنهار :

ومياه هذا الإقليم جيدة إلا ماء بانياس فإنه يطلق، وماء صور يحصر، وماء بيسان ثقيل، ونعوذ بالله من صغر، وماء بيت الرام رديء، ولا ترى أخف من ماء أريحاء، وماء الرملة مري، وماء نابلس خشن، وفي ماء دمشق وإيليا أدنى خشونة، وفي الهواء أدنى يبوسة.

---

[205] - ما يزال هذا الفرن مستعملاً في الأرياف الفلسطينية وخبزه يدعى خبز الطابون

[206] - الملوخية المفرومة والعدس تسمى حتى الآن البصارة، وهي وجبة شهيرة في الريف الفلسطيني وقد تطبخ بالفول المجروش

[*] السمقة: اللون الأحمر باللغة السريانية

[**] الحوارة: اللون الأبيض باللغة السريانية

[209] - المري اكسية من الصوف مخططة، مفردها الماري (القاموس المحيط)

وفيه عدة من الأنهار تقلب في بحر الروم، إلا بردى فإنه يشق أسفل قصبة دمشق فيسقي الكورة، وقد شق منه شعب يتدور في أعلى القصبة، ثم ينقسم قسمين، بعض يتبحر نحو البادية، وبعض ينحدر فيلقى نهر الأردن.

ونهر الأردن ينحدر من خلف بانياس، فيتبحر بإزاء قدس، ثم ينحدر إلى طبرية ويشق البحيرة، ثم ينحدر في الأغوار إلى البحيرة المقلوبة، وهي مالحة جداً وحشة مقلوبة منتنة، فيها جبال وليس فيها أمواج كثيرة.

وبحر الروم يمد على طرفه الغربي، وبحر الصين[208] يمس طرفه الجنوبي.

وبإزاء صور تقع جزيرة قبرص، يقال إنها اثنا عشر يوماً كلها مدن عامرة، وللمسلمين فيها رفق وسعة لكثرة ما يحمل منها من الخيرات والثياب والآلات وهي لمن غلب. المسافة إليها في البحر إقلاع يوم وليلة، ثم إلى بلد الروم مثل ذلك.

عجائب :

ومن العجائب بإيليا مغارة بظاهر البلد عظيمة، سمعت بعض العلماء وقرأت في بعض الكتب أنها تنفذ إلى قوم موسى، وما صح لي ذلك. وإنها مقاطع للحجارة، وفيها طرق يدخل فيها بالمشاعل.

بين فلسطين والحجاز الحجارة التي رمى بها قوم لوط على طريق الحجاج مخططة صفار وكبار.

بطبرية عين تغلى تعم أكثر حمامات البلد، وقد شق إلى كل حمام منها نهر فبخاره يحمي البيوت فلا يحتاج إلى وقيد. وفي البيت الأول ماء بارد يمزج مقدار ما يتطهرون به ومطاهرهم من ذلك الماء.

وفي هذه الكورة ماء مسخن يسمى الحمّة، حارّ من اغتسل فيه ثلاثة أيام ثم اغتسل

---

(208) - يبدو ان المقدسي يدمج البحر الأحمر ببحر الصين الذي يسمى الأن بحر العرب، اما الاسم القديم للبحر الأحمر فهو بحر القلزم والقلزم كما يقول المقدسي البشاري في حديثه عن إقليم مصر تقع في كور الجوف وهي الكورة التي تلي كورة الجفار المجاورة لجنوب بلاد الشام، ويقع فيها خليج السويس وهذا هو نص المقدسي عن القلزم: (بلد قديم على طرف بحر الصين يابس عابس لاماء ولا كلأ ولا زرع ولا ضرع ول احطب ولا شجر ولا عنب ولا ثمر، يحمل إليهم الماء في المراكب ومن موضع على بريد يسمى سويس على الجمال، ماء آجن ردي، ومن أمثالهم ميرة أهل القلزم من بلبيس، وشربهم من سويس، يأكلون لحم التيس، ويقدون سقف البيت، هي احد كنفكة الدنيا مياه حماماتهم زعاق وحشة ملولة، والمسافة إليها صعبة، غير ان مساجدها حسنة وبها قصور جليلة ومتاجر مفيدة هي خزانة مصر وفرضة الحجاز ومعونة الحاج، واشترينا يوماً بدرهم حطباً فاحتجنا له بدرهم حطباً. وهذه الكورة غير طيبة ولا ارى في ذكر بقية مدائنها فائدة).

في ماء آخر بارد وبه جرب أو قروح أو ناسور أو أي علة يكون بُرءٌ بإذن الله. وسمعت الطبرانيين يذكرون أنه كان عليها بما يدور بيوت، كل بيت لعلة فكل من به تلك العلة واغتسل فيه برأ إلى وقت أرسطاطاليس، ثم سأل ملك ذلك الزمان هدم هذه البيوت لئلا يستغنوا عن الأطباء. وصحت لي هذه الحكاية لأن كل من دخله من أصحاب العلل وجب أن يخوض الماء كله ليوافق موضع شفائه.

وبحيرة صغر أعجوبة يقلب فيها نهر الأردن ونهر الشراة، فلا يحيل فيها ويقال إنها لا تغرق سريعاً، ومن احتقن بمائها أشفي من عللٍ كثيرة، ولها موسم في شهر آب يذهب إليها الأحداث وأصحاب العلل.

وفي جبال الشراة أيضاً حمة.

ينزل على فلسطين في كل ليلةِ الندى في الصيف إذا هبت الجنوب حتى يجري منه مزاريب المسجد الأقصى.

أبو رياح[209] حمص طلسم جعل للعقارب ومن أخذ طيناً وطبعه[210] عليه نفع من لدغ العقارب بإذن الله تعالى، فالعمل للطبع لا للطين.

مدن سليمان عليه السلام بعلبك وتدمر[211] من العجائب.

وقبة الصخرة، وجامع دمشق، وميناء صور وعكا من العجائب.

تضاريس :

ووضع هذا الإقليم ظريف، هو أربعة صفوف، فالصف الأول يلي بحر الروم وهو السهل، رمال منعقدة ممتزجة يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل.

والصف الثاني الجبل، مشجر ذو قرى وعيون ومزارع يقع فيه من البلدان بيت جبريل وإيليا ونابلس واللجون وكابل وقدس والبقاع وأنطاكية.

والصف الثالث الأغوار ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع ونيل، يقع فيه من البلدان ويلة وتبوك وصغر وأريحاء وبيسان وطبرية وبانياس.

والصف الرابع سيف البادية، وهي جبال عالية باردة معتدلة مع البادية، ذات قرى وعيون وأشجار. يقع فيه من البلدان مآب وعمان وأذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب.

---

[209] - أبو رياح موقع شرقي حمص قرب القريتين فيه فتحة يخرج منها بخار ساخن يستخدم كما حمام البخار.

[210] - أي وضع الطين على مكان اللدغ فيكون النفع

[211] - خرافات العهد القديم

وتقع الجبال الفاضلة مثل جبل زيتا وصديقا ولبنان واللكام في الصف الثاني.
وسرة الأرض المقدسة في الجبال المطلة على الساحل.

مناظرة :

وكنت يوماً في مجلس أبي محمد الميكالي رئيس نيسابور وقد حضر الفقهاء للمناظرة فسئل أبو الهيثم عن دليل جواز التيمم بالنورة فاحتج بقول النبي صلى الله عليه وسلم جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فعم الأرضين كلها . فقال السائل إنما عنى السهل لا الجبل ثم كثر الكلام والجلبة وأعجبوا بقولهم.

فقلت لأبي ذر بن حمدان، وكان أشغبهم، ما تنكر على قائل لو قال. العلة ما ذكرها هذا الفقيه الفاضل، لأن الله تعالى قال: ادخلوا الأرض المقدسة، وهي جبال. فجعل يخردل في كلامه ويورد ما لا ينقض ما ذكرناه. ثم قال الفقيه سهل بن الصعلوكي[212]: إنما قال ادخلوا الأرض ولم يقل اصعدوا الجبل ووقف الكلام.

فإن قال قائل: لمَ لم يقل إن الباب بأريحاء والله أمرهم بدخوله، وأريحاء بالغور لا بالجبال فصح ماقاله الإمام ابن الإمام. قيل له لنا في هذا جوابان: أحدهما فقهي وهو أن الأرض المقدسة جبال لا محالة، وأريحاء في سهولها ومن اتباعها فظاهر الآية مصروف إلى حقيقة القدس، وهي إيليا وإنما هي في الجبال لا إلى التبع من السهول والأغوار. فإن قال: بل الآية مصروفة إلى مدينة الجبارين، وهي أريحاء التي أمروا بدخولها، فتفيد الآية أمرين: دخول الأرض المقدسة، والمدينة المذكورة، وفائدتها على ما ذهبت إليه مقصورة على الأرض فحسب، وكلما حملنا القرآن على كثرة الفوائد كان أحسن.

قيل إن الله عز اسمه قد أوضح ما ذهبنا إليه بقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[213].

فدخلت سهول فلسطين وجبالها تحت هذه الآية وصار قولهم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾[214] يعني في نواحيها . والجواب الآخر إقليمي، وذلك أنهم أمروا بدخول القدس، والجبارون بأريحاء، وهي في غور بين الجبال والبحيرة، ولا يجوز أن تقول إنهم أمروا

---

[212] - ابو سهل الصعلوكي محمد بن سليمان بن محمد بن سليمان بن هارون بن موسى بن عيسى بن إبراهيم بن بشر الحنفي العجلي، الأصبهاني اصلا ومولداً فقيه شافعي متكلم

[213] - سورة الأعراف الآية 137.

[214] - سورة المائدة الآية 22

بركوب البحر، فلم يبق إلا دخولها من نحو الجبال، وكذلك فعلوا لأنهم دخلوها من تحت البلقاء، وعبروا الأردن إلى أريحاء.

مع أنه يلزم صاحب هذه المقالة شيئان، إما أن يقول إنهم لم يؤمروا بدخول جبال القدس، وإما أن يقول إن جبال إيليا والبلقاء ليست من الأرض المقدسة، ومن زعم شيئاً من هذين فترك الكلام معه أصوب.

وقد كان الفقيه أبو ذر، لما ضيقت عليه هذه المسألة قال لي: إنك لم تدخل بيت المقدس ولو دخلتها لعلمت إنها سهل بلا جبل، حتى قال له الرئيس أبو محمد هو منها [أي: من القدس].

وسمعت خالي عبدالله بن الشوا يقول: أراد بعض السلاطين أن يتغلب على دير شمويل[215]، وهي قرية على فرسخ من إيليا، فقال لصاحبها صف لي قريتك قال: هي أيدك الله قريبة من السماء بعيدة من الوطاء. قليلة الابروط [؟] كثيرة البلوط. تحتاج إلى الكد ولا تزكى[؟] بالرد. يغالب غر[؟] ولوز مر. إزرع قبا[؟]، وخذ قبا، إلا أن الذي نذرت كان أنبل جبا، فقال اذهب لا حاجة لنا في قريتك.

جبال مقدسة وزهاد :

وأما الجبال الشريفة، فجبل زيتا يطل على بيت المقدس وقد ذكرناه، وجبل صديقا[216] بين صور وقدس وبانياس وصيدا، ثم قبر صديقا عنده مسجد، له موسم يوم النصف من شعبان، يجتمع إليه خلق كثير من هذه المدن ويحضره خليفة السلطان.

واتفق وقت كوني بهذه الناحية يوم الجمعة في النصف من شعبان، فأتاني القاضي أبو القاسم بن العباس حتى خطبت بهم، فبعثتهم في الخطبة على عمارة ذلك المسجد ففعلوا وبنوا به منبراً.

وسمعتهم يزعمون أن الكلب يعدو خلف الوحش فإذا بلغ ذلك الحد وقف، وما يشبه هذه من الحكايات.

وأما جبل لبنان فهو متصل بهذا الجبل، كثير الأشجار والثمار المباحة، وفيه عيون ضعيفة يتعبد عندها أقوام قد بنوا لأنفسهم بيوتاً من القش، يأكلون من تلك المباحات،

---

(215) - هي قرية دير أبو سلامة التي تقع إلى الشرق من اللد والغرب من القدس، أقيمت مكانها مستوطنة كفار شمواييل

(216) - لعله جبل عامل

ويرتفقون بما يحملون منها إلى المدن من القصب الفارسي والمرسين، وغير ذلك وقد قلوا به.

وجبل الجولان يقابله من نحو دمشق على ما ذكرنا، وبه لقيت أبا إسحاق البلوطي في أربعين رجلاً، لباسهم الصوف ولهم مسجد يجتمعون فيه، ورأيته فقيهاً عالماً على مذهب سفيان الثوري، ورأيت تقوتهم بالبلوط ثمرة على مقدار التمر مر يفلق ويحلى ثم يطحن وثم شمير بري يخلط به(*).

وأما جبل لكام فإنه أعمر جبال الشام وأكبرها وأكثرها ثماراً، هو اليوم بيد الأرمن وطرسوس من ورائه وأنطاكية دونه.

دواوين :

والولايات لصاحب مصر، وقد كان سيف الدولة غلب على أعلاه.

والضرائب فيه هينة إلا ما يكون على الفنادق فإنه منكر على ما ذكرنا من بيت المقدس.

وحماياته ثقيلة، على قنسرين والعواصم ثلاثمائة ألف وستون ألف دينار، وعلى الأردن مائة ألف وسبعون ألف دينار، وعلى فلسطين مائتا ألف وتسعة وخمسون ألف دينار، وعلى دمشق أربعمائة ألف ونيف. وقرأت في كتاب ابن خرداذبة خراج قنسرين أربعمائة ألف دينار وخراج حمص ثلاثمائة ألف وأربعون ألفاً وخراج الأردن ثلاثمائة ألف وخمسون ألفاً وخراج فلسطين خمسمائة ألف دينار.

مسافات وطرق :

وأما المسافات فتأخذ من حلب الى بالس يومين، ومن حلب إلى قنسرين يوماً، وكذلك إلى الأثارب.

ومن حلب إلى منبج يومين، ومن حلب إلى أنطاكية خمسة أيام، ومن أنطاكية إلى اللاذقية ثلاثة أيام، ومن منبج إلى الفرات مرحلة.

(*) (Chaec sic habet:

وأما الجبال الشريفة فجبل لبنان وجبل الجولان فيهما عباد عند عيون ضعيفة قد بنوا ثمة اخصاصا من القصب والحلفاء يتقوتون بشيء يقال له البلوط على مقدار التمر عليه قشر وهو مر إلا انهم يلقونه في الماء حتى يحلو ثم إذا جف طحنوه وخبزوه وأخلطوا عليه شيء من شعير ينبت عندهم مباح، وفي هذين الجبلين ثمار كثيرة وهو موضع طيب ورأيت رئيسهم ابا إسحق البلوطي فرأيته عاقلا فقيها على مذهب سفيان الثوري [احسن التقاسيم، طبعة ليدن، ص188]

وتأخذ من حمص إلى جوسية مرحلة، ثم إلى يماث[217] مرحلة، ثم إلى بعلبك نصف مرحلة، ثم إلى الزيداني مرحلة، ثم إلى دمشق مرحلة.

وتأخذ من حمص إلى شمسين مرحلة، ثم إلى قارا مرحلة، ثم إلى النبك مرحلة، ثم إلى القطيفة مرحلة، ثم إلى دمشق مرحلة.

وتأخذ من حمص إلى سلمية مرحلة، ثم إلى القسطل مرحلتين، ثم إلى الزراعة مثلها، ثم إلى الرصافة مثلها، ثم إلى الرقة نصف مرحلة.

ثم تأخذ من حمص إلى حماة مرحلة، ثم إلى شيزر مرحلة، ثم إلى كفرطاب مرحلة، ثم إلى قنسرين مرحلة، ثم إلى حلب مرحلة.

وتأخذ من دمشق إلى طرابلس أو إلى بيروت أو إلى صيدا أو إلى بانياس أو إلى الحوران أو البثنية يومين يومين. وتأخذ من دمشق إلى أقصى الغوطة أو إلى بيت سرعا مرحلة مرحلة.

وتأخذ من دمشق إلى الكسوة بريدين، ثم إلى جاسم مرحلة، ثم إلى فيق مثلها ثم إلى طبرية بريداً.

وتأخذ من بانياس إلى قدس أو إلى جب يوسف بريدين.

وتأخذ من بيروت إلى صيدا أو إلى طرابلس مرحلة مرحلة.

وتأخذ من طبرية إلى اللجون أو إلى جب يوسف أو إلى بيسان أو إلى عقبة أفيق أو إلى جش أو إلى كفركيلا مرحلة مرحلة.

وتأخذ من اللجون إلى قلنسوة[218] مرحلة، ثم إلى الرملة مرحلة، وإن شئت فخذ من اللجون إلى كفرسابا بالبريد مرحلة ثم إلى الرملة مرحلة.

وتأخذ من بيسان إلى تعاسير[219] بريدين ثم إلى نابلس مثلها، ثم إلى بيت المقدس مرحلة.

وتأخذ من جب يوسف إلى قرية العيون[220] مرحلتين، ثم إلى القرعون مرحلة، ثم إلى عين الجر [عنجر] مرحلة، ثم إلى بعلبك مرحلة، وهذا يسمى طريق المدارج.

وتأخذ من الجش إلى صور مرحلة، ومن صور إلى صيدا مرحلة. ومن صور إلى قدس أو إلى مجدل سلم بريدين، ومن مجدل سلم إلى بانياس بريدين.

---

(217) - محطة في البقاع الشمالي قد تكون في منطقة الهرمل

(218) - قرية قلنسوه هي إحدى قرى قضاء طولكرم وتقع الآن في منطقة المثلث

(219) - لعلها تياسير قرية ما تزال قائمة وتتبع نابلس

(220) - اسمها الآن مرجعيون وهي بلدة قديمة وشهيرة على هذا الطريق

وتأخذ من طبرية إلى عكا مرحلتين، ومن جبل لبنان إلى نابلس أو إلى قدس أو إلى صيدا أو إلى صور نحو مرحلة مرحلة.

وتأخذ من الرملة إلى بيت المقدس أو إلى بيت جبريل أو إلى عسقلان أو إلى السكرية مرحلة مرحلة.

وتأخذ من الرملة إلى نابلس أو إلى كفرسلام أو إلى مسجد إبراهيم أو إلى أريحاء مرحلة مرحلة.

وتأخذ من الرملة إلى يافة أو إلى الماحوز، أو إلى أرسوف أو إلى أزدود أو إلى رفح مرحلة مرحلة.

وتأخذ من بيت المقدس إلى بيت جبريل أو إلى مسجد إبراهيم أو إلى نهر الأردن مرحلة مرحلة.

وتأخذ من بيت المقدس إلى نابلس مرحلة.

وتأخذ من بيت المقدس إلى أريحاء بريدين.

وتأخذ من غزة إلى بيت جبريل أو إلى أزدود أو إلى رفح مرحلة مرحلة.

وتأخذ من مسجد إبراهيم إلى قاووس مرحلة ثم إلى صغر مرحلة.

وتأخذ من نهر الأردن إلى عمان مرحلة.

وتأخذ من نابلس إلى أريحاء مرحلة.

وتأخذ من أريحاء إلى بيت الرام بريدين ثم إلى عمان مرحلة.

وتأخذ من صغر إلى مآب مرحلة.

وتأخذ من عمان إلى مآب أو إلى الزرقاء مرحلة مرحلة.

وتأخذ من الزرقاء إلى أذرعات مرحلة ومن أذرعات إلى دمشق مرحلتين.

وتأخذ من قيسارية إلى كفرسلام أو إلى كفرسابا أو إلى أرسوف أو إلى الكنيسة مرحلة مرحلة.

ومن يافة إلى عسقلان مرحلة.

إقليم مبارك

هذا هو الإقليم الذي افتخر به فرعون على الورى وقام على يد يوسف بأهل الدنيا. فيه آثار الأنبياء والتيه وطور سيناء. ومشاهد يوسف وعجائب موسى وإليه هاجرت مريم بعيسى.

وقد كرر الله في القرآن ذكره وأظهر للخلق فضله. أحد جناحي الدنيا ومفاخره فلا تحصى.

ناصر خسرو في فلسطين

مقدمة

تكتسب رحلة (سفر نامة) للرحالة والشاعر والداعية الفارسي ناصر خسرو؛ أهمية استثنائية في تاريخ رحلات العرب والمسلمين إلى بيت المقدس. فهذه الرحلة، بما تضمنته من وصف دقيق لمدينة القدس، التي وصلها ناصر خسرو في الخامس من رمضان سنة 438 هجرية [16 آذار 1047م]، تُعَدُّ وثيقة تاريخية مهمة عن أوضاع المدينة المقدسة خصوصاً، وبعض مدن فلسطين الأخرى عموماً، في زمن خطير، كانت الدولة العربية الإسلامية تشهد فيه تحولات كبرى، كانت تمهد، بوعي أو بغير وعي، لاحتلال فلسطين، ومعها أجزاء واسعة من بلاد الشام، من قبل الفرنجة الصليبيين.

مولده ونشاته :

ولد ناصر خسرو لأسرة متوسطة الحال في قباديان ببلاد فارس عام 394هـ [1003م]، وشغل بعض المناصب الحكومية المهمة في الدولتين الغزنوية والسلجوقية، وكان واسع الاطلاع، قرأ كثيراً في الديانات حتى كاد أن يصل إلى درجة الإلحاد، ولكنه عزم بعد ذلك على الحج، بعد أن شاهد رؤيا دعاه فيها شيخ كبير للتوجه نحو القبلة.

وقد ذكر ناصر خسرو أن السبب الحقيقي وراء رحلته، هو ما ورد في سورة محمد ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[221]. بالإضافة إلى ما ورد في سورة الفتح ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[222]، فعزم على الرحيل حتى موضع الشجرة التي بايع المسلمون في ظلالها الرسول صلى الله عليه وسلم.

---

[221] - الآية 24.

[222] - الآية 12.

رحلته :

وقد وقعت أحداث رحلته بين الأعوام 437هـ/444هـ [1045/1052م]، إذ غادر ناصر مرو مستصحباً أخاه أبا سعيد وغلاماً هندياً، وبعد أن زار بيت المقدس، قصد الحج لأن محدثه في الرؤيا أشار إلى القبلة حين سأله أين يجد ما يبدد شكوكه، ولأن قراءة القرآن هدته إلى الذهاب حيث الشجرة التي تعاهد تحتها المؤمنون على نصرة النبي عليه الصلاة والسلام إلى النهاية مهما كلفهم الأمر، وعاد إلى بيت المقدس فعزم على زيارة مصر على أن يغادرها إلى مكة مرة أخرى. فلم يكن في عزمه أن يقيم بمصر زمناً طويلاً، ولم يكن في نيته أن يرحل إلى بلاد أخرى، لذلك لم يكن استعداده كاملاً لهذه الرحلة الطويلة الشاقة التي دامت سبع سنوات، لقد اكتفى، حين طلب إعفاءه من عمله في الديوان، بالقليل الذي لا بد منه للرحلة بل لقد ترك بقية أمواله.

ثم ها هوذا يحدثنا عن الحال التي كان عليها. هو وأخوه، عندما بلغا البصرة، لقد بليت ملابسهما ولم يبق منها إلا خرق مدلاة على جسديهما، وطال شعر رأسيهما، وبدت عليهما سيما الفقر والجوع والإعياء، فاضطر ناصر إلى أن يبيع هذه الكتب التي اضطر من أجلها إلى أن يعود من مكة إلى مصر. فلما باعها ذهب مع أخيه إلى الحمام، ولكن الحمامي رفض إدخاله ولم يرق لحاله، ولا لحاجته إلى الدفء والنظافة، وحسب أطفال الطريق أن بهما جنة فأخذوا يعدون وراءهما ويقذفونهما بالحجارة.

ولكن ناصراً وإن لم يجد المال الكافي للقيام بهذه الرحلة الطويلة، لأنه لم يدبر أمرها قبل قيامه من مرو، ولكن الحوادث هي التي كانت تسيره، فإنه كان يعتمد على شخصيته في كثير من الأحيان، فهو الرجل الذائع الصيت الذي يعرفه كبار القوم، فإن أصابه ضر أو ألمت به مصيبة استطاع أن يجد عون الأصدقاء ليبدلوا عسره يسراً. على هذا النحو نجد أن ناصراً لم يكن يسير في رحلته وفق ترتيب سابق مرسوم، وكل ما استعد له في أمر الرحلة كان قاصراً على زيارة مكة، ثم زيارة مصر على أن لا يطيل المكوث فيها ليعود إلى مكة مرة أخرى.

رسالته :

عاد ناصر إلى بلخ سنة 444 هجرية [1052م] بصحبة أخيه أبي الفتح عبد الجليل، وقد طوف كثيراً في خراسان، وهي جزيرته التي عُيِّنَ حجة لها من قبل الفاطميين، ثم انتقل إلى مازندران فأقام بها زمناً طويلاً حتى نسب إليها، وقد استطاع أن يقنع كثيراً من

أهلها بالدخول في مذهبه. ولكن مناظرته للعلماء وشهرته بمذهب خاص يتنافى مع السنة وجهره بآرائه وعنايته ببثها بين الناس، كل هذا أثار عليه الناس والحكومة، فاعتدي على منزله واضطر أهله إلى هجره، كما اضطر هو إلى أن ينجو بنفسه فهاجر إلى يمكان، وهناك أخذ يصنف الكتب والرسائل في مذهبه، وكان بعضها بوحي من الخليفة الفاطمي المستنصر بالله نفسه.

وكتب ناصر كثيرة، منها المنظوم ومنها المنثور، وقد ذكر الدكتور يحيى الخشاب، أول من ترجم الرحلة للعربية، أن كتب ناصر خسرو المنشورة أو المخطوطة التي رآها هي: في الشعر (الديوان) و(سعادت نامة) و(روشنائي نامة). أما المنشورة فهي: (زاد المسافرين) و(خوان الإخوان) و(الرسالة) و(وجه دين) و(سفر نامة)، كما عثر الدكتور الخشاب على مخطوطة تحتوي على جزء من كتاب (كشايش ورهايش).. وقد لخص شريعته في كتاب (وجه دين) الذي أراد أن يقلد به «كتاب البيان» الذي وضعه غياث أحد كبار رجال الدعوة الباطنية في أوائل القرن الثالث الهجري، وهو يحوي شرحاً باطنياً لأركان الإسلام والجهاد والإمامة.

وظل ناصر يدعو لمذهبه في يمكان، ولا يزال لدى الإسماعيليين النزاريين في شوغان كتب لناصر منها «الصحيفة» و«مرآة المحققين» ثم إنهم يعرفون «سفر نامة» ولكنهم ينسبونه إلى سعيد سهراب أحد أقارب ناصر خسرو الذين عاصروه. ولا يزال قبر ناصر للآن مزاراً يؤمه الإسماعيليون النزاريون – نزار بن المستنصر – من الصين وآسيا الوسطى والهند والأفغان.

فلسطين في الرحلة :

تبدو فلسطين من خلال وصف ناصر خسرو مستقرة إلى حد كبير تحت سلطة الفاطميين، رغم إشاراته السريعة لوجود خطر رومي قادم من البحر، وخطر داخلي ناجم عن وجود قطاع طرق، وخصوصاً في منطقة الجليل الأعلى.

وفي الوقت الذي يحدثنا عن مدينة طبرية كمعقل شيعي (شديد التعصب) في ذلك الوقت، نجده يصف الطبيعة الجميلة بين الرملة والقدس والخليل، ويمتدح الأبنية والزخارف والتنظيم في قيسارية والرملة.

ويسهب ناصر خسرو في وصف بيت المقدس وصفاً دقيقاً، فيذكر التفاصيل المعمارية للمسجد الأقصى، ولقبة الصخرة، ولقبة السلسلة، ومهد عيسى، ومحراب مريم.

إضافة إلى عين سلوان ووادي جهنم. ثم يصف الحرم الإبراهيمي ويتحدث عن المضافة التي تقدم الطعام للزائرين.

ويشير إلى أن أهل الشام يحجون إلى القدس إن لم يستطيعوا الحج إلى الحجاز، ويؤدون الشعائر نفسها من ذبح الأضاحي والتكبير. ولعل هذه العادة كانت ما تزال مستمرة منذ أيام الأمويين، حيث أشار إلى ذلك المؤرخ اليعقوبي والرحالة المهلبي.

وما يلفت النظر في رحلة ناصر خسرو عدم ذكره لأي من العلماء في فلسطين عموماً، وبيت المقدس خصوصاً، ولعل السبب في ذلك يعود إلى اختلاف المذهب الرسمي الفاطمي عن المذهب الذي يتبعه معظم أبناء فلسطين، وربما ارتحال هؤلاء العلماء إلى دار الخلافة العباسية في بغداد.

وعموماً تُعَدُ رحلة ناصر خسرو من المصادر الجغرافية و التاريخية والاجتماعية المهمة للعرب والمسلمين عموماً، ففيها ملاحظات ثمينة عن العمارة و المواقع الأثرية و الطبيعية. وقد نهلت منها الموسوعات الكبيرة مثل الموسوعة الفلسطينة و الموسوعة البريطانية و الموسوعة الفارسية وغير ذلك.

كان ناصر خسرو أمينا فيما كتبه، فإذا رأى في رحلته شيئا كتب أنه شاهد، أما إذا سمع عن أشياء فيكتب أنه سمعها من الرواة.

صدرت رحلة ناصر خسرو بالعربية عن معهد اللغات الشرقية في جامعة القاهرة عام 1943م، بعد أن قام الدكتور يحيى الخشاب بترجمتها عن الفارسية، ومقارنتها بالترجمة الفرنسية للمستشرق الفرنسي شارل شيفر التي صدرت عام 1881م، وقد استوعب الدكتور الخشاب أيضاً ملاحظات غني زادة الذي حقق الرحلة بالفارسية.

وقد نقلها إلى الإنجليزية تاكستون 1986م. كما صدرت ترجمة جديدة للرحلة عام 1983م في جامعة الملك سعود في المملكة العربية السعودية لخالد أحمد البدلي مع ملاحظات أوفى حول جغرافية الجزيرة العربية ومواقع الحج.

وقد اعتمدنا في النص المتعلق بفلسطين، والذي اجتزأناه من الرحلة، على ترجمة الدكتور يحيى الخشاب، وقارناها بالنص الفارسي، وخصوصاً أسماء المدن والقرى الفلسطينية، وقمنا باستبدال بعض المصطلحات المصرية العامية التي استخدمت في النص بمفردات عربية فصيحة، مثل السراية [القصر]، والقرافة [المقبرة]، والزير[جرة الماء الكبيرة]، كما قمنا باقتراح بعض المفردات التي توضح المقاطع الغامضة والإشكالية، وأخيراً شرحنا بعض المفردات الواردة في النص، والتي لم يقم الدكتور الخشاب بشرحها أو توضيحها وخصوصاً أسماء الأماكن.

وصف الشام وفلسطين

هذا ما يقول أبو معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي[223] تاب الله عنه: كانت صناعتي الإنشاء وكنت من المتصرفين في أموال السلطان وأعماله، واشتغلت بالديوان وباشرت هذا العمل مدة من الزمن وذاع صيتي بين أقراني. وفي ربيع الآخر سنة 437 [هجرية، تشرين الأول والثاني 1045م] أيام أبي سليمان جفري بيك داود بن ميكائيل بن سلجوق حاكم خراسان[224]، ذهبت من مرو في عمل للديوان ونزلت في بنج ديه مرو الرود كان ذلك يوم قران الرأس والمشتري[225]، ويقال إن الله تعالى وتقدس يستجيب فيه إلى ما يطلب الناس من حاجات، فذهبت إلى زاوية وصليت ركعتين ودعوته تعالى وتبارك أن ييسر لي أمري، فلما عدت لأصدقائي وأصحابي وجدت أحدهم ينشد شعراً فارسياً، فجال بخاطري أبيات فكتبتها على ورقة لأعطيه إياها حتى ينشدها، فإذا به ينشد ما كتبت من شعر، ولم أعطه الورقة، فتفاءلت بهذه الحال وقلت في نفسي: إن الله تعالى وتبارك قد قضى حاجتي.

ثم ذهبت إلى جزجانان فمكثت بها حوالي شهر، وظللت أشرب الخمر. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «قولوا الحق ولو على أنفسكم»، حتى إذا كانت ذات ليلة رأيت في المنام رجلاً يقول لي: «إلى متى تشرب هذا الشراب الذي يسلب لب الرجال، خير لك أن تصحو». فأجبت: إن الحكماء لا يستطيعون شيئاً غير هذا، يقلل هموم الدنيا.

فأجاب إن التسرية عن النفس لا تتأتى بفقد الشعور والعقل، والحكيم لا يستطيع إن يقول إن الرجل المسلوب الفؤاد يصلح هادياً للناس؛ بل ينبغي عليه إن يبحث عما يزيد العقل والحكمة.

---

[223] - نسبة إلى مدينة مرو

[224] - هو شقيق طغرل بيك الحاكم السلجوقي الهام، ولي الحكم في خراسان من قبل اخيه طغرل بيك، وقد توفي سنة 451هـ 1059م

[225] - ظاهرة فلكية اعتبرها ناصر خسرو فال خير.

قلت: وأنى لي هذا؟

قال: من جد وجد. ثم أشار إلى القبلة ولم يقل شيئاً، فلما صحوت من النوم كانت هذه الرؤيا ماثلة بأكملها أمامي، وقد أثرت في، فقلت لنفسي: صحوت من نوم البارحة وينبغي إن أصحو من نوم أربعين سنة خلت، وأمعنت الفكر فوجدتني لن أسعد ما لم أعدل عن كل سلوكي.

وفي يوم الخميس السادس من جمادى الآخر سنة 437 [هجرية، 20 كانون الأول 1045م] منتصف شهر دي من السنة الفارسية من التقويم اليزدجردي[226]، اغتسلت وذهبت إلى الجامع فصليت، ودعوت الله تبارك وتعالى أن يعينني على أداء الواجب، وعلى ترك المنهيات والسيئات، كما أمر الحق سبحانه تعالى.

ثم توجهت من هناك إلى شبورغان وفي المساء كنت في قرية بارياب[227]، ومنها سرت إلى مرو الرود عن طريق سنكلان وطالقان، فلما بلغت مرو طلبت إعفائي مما عهد إلي من عمل وقلت: إني عازم على الحج، ثم أديت ما علي من حساب، وتركت أموالي عدا القليل الضروري منها.

وفي الثالث والعشرين من شعبان [6 آذار 1046م] عزمت على السفر إلى نيشابور فسرت من مرو إلى سرخس، وهي على ثلاثين فرسخاً منها، ومن سرخس إلى نيشابور أربعون فرسخاً. وقد بلغتها يوم السبت الحادي عشر من شوال [22 نيسان 1046م].

ويوم الأربعاء آخر هذا الشهر كسفت الشمس، كان الحاكم حينئذ طغرل بيك محمد أخو جغري بيك، وكانوا يشيدون مدرسة بقرب سوق السراجين، أمر ببنائها، وقد ذهب أثناء ولايته لأول مرة للاستيلاء على ولاية أصفهان.

وفي الثاني من ذي القعدة [12 أيار 1046م]، غادرت نيشابور في صحبة الأستاذ الموفق[228] الذي كان مؤدباً للسلطان، فبلغنا قومس عن طريق كوان، وزرت الشيخ بايزيد البسطامي[229] قدس الله روحه.

وفي الجمعة الثامن من ذي القعدة [18 أيار] سرت إلى دامغان ثم بلغت سمنان عن طريق آنجوري وجاشت خواران في غرة ذي الحجة [9حزيران]، وقد مكثت هناك زمناً

---

(226) - شهر دي من التقويم الفارسي الشمسي القديم يأتي بين شهري كانون الأول وكانون الثاني

(227) - او فارياب موطن الفارابي

(228) - هو الخوجة هبة الله الموفق كاتب السلطان طغرل بيك

(229) - طيفور بن عيسى، جده الأعلى كان مجوسياً وأسلم ويعتقد بصلاحه مسلمو الشرق، وقد بنى أحد أمراء المغول في القرن السابع الهجري قبة على قبره

وتعرفت بأهل العلم وقد دلوني على رجل اسمه علي النسائي، وهو شاب يتكلم الفارسية بلهجة الديالمة، كان شعر رأسه مرسلاً، وكان وهو يتكلم يقول: (إني قرأت كذا على الأستاذ أبي علي بن سينا رحمه الله، وهكذا سمعت عنه) لكي أعرف أنه تلميذ ابن سينا، ولما ناظرته قال: (إني قليل المعرفة بكل علم، وأحب أن أقرأ معك قليلاً في الحساب)، فخرجت متعجباً وقلت: (ماذا يعلم الآخرين وهو لا يعلم شيئاً؟).

وعدت من بلخ إلى الري ثلاثمائة وخمسين فرسخاً، ويقال إنه من الري إلى ساوة ثلاثون فرسخاً، ومن ساوة إلى همدان كذلك، ومن الري إلى أصفهان خمسون فرسخاً، وإلى آمل ثلاثون، وبين الري وآمل جبل دماوند، وهو كالقبة ويسمى لواسان، ويقال إن بقمته بئراً يستخرج منه النوشادر[230]، ويقال والكبريت أيضاً، فيصعد عليها رجال يحملون جلود البقر ويملئونها بالنوشادر، ثم يدحرجونها من قمة الجبل لتعذر إيجاد طريق لنقلها.

قزوين :

وفي الخامس من محرم سنة 438 [هجرية، 13 تموز 1046م] الموافق العاشر من شهر مرداد سنة 415 من تاريخ الفرس، توجهت ناحية قزوين فبلغت قرية قوهة كان بها قحط حتى بيع المن من خبز الشعير بدرهمين، وقد غادرتها في التاسع من محرم [17 تموز] فبلغت قزوين، وهي آهلة بالحدائق التي لا تحدها أسوار أو أشواك، فلا يحول دون دخولها عائق.

رأيت قزوين مدينة عظيمة ذات حصن مكين عليه شرفات، وبها أسواق جميلة، إلا أن الماء بها قليل، وهو يجري في قنوات تحت الأرض، كان حاكمها رجلاً من العلويين، ويشتغل معظم صناعها بصناعة الأحذية.

وفي الثاني عشر من محرم سنة 438 [هجرية، 10 تموز 1046م] غادرت قزوين عن طريق بيل وقبان وهما من ضواحيها، وسرت إلى قرية تسمى خرزويل.

كان معنا أنا وأخي غلام هندي وكان يصحبنا زاد قليل، فذهب أخي للقرية ليشتري شيئاً من البقال، فقال له أحدهم: ماذا تريد؟ أنا البقال. فقلت كل ما عندك يناسبنا فإنا غرباء وعابرو سبيل. فقال ليس عندي شيء أبداً. وبعد ذلك كنت أقول: إنه بقال خرزويل عن كل شخص في أي مكان يقول كلاماً من هذا النوع.

---

[230] - النشادر او الأمونيا هو غاز عديم اللون ذو رائحة نفاذة مميزة، يمكن أن يظهر على شكل نترات صلبة وله استخدامات كيميائية عدة

بعد مغادرة هذه القرية جزنا منحدراً صعباً، وبعد مسيرة ثلاثة فراسخ بلغنا قرية تسمى الخير من أعمال طارم، كان جوها حاراً وبها شجر كثير من الرمان والتين، ومعظمه بري.

ومن هناك اجتزنا نهراً يسمى شاه رود، عليه قرية تسمى خندان تجبى فيها المكوس من قبل أمير الأمراء، وهو من ملوك الديلم، وحين يخرج النهر منها يلتقي بنهر آخر اسمه سبيدرود، ثم يدخل النهران وادياً شرقي جبال جيلان، ويمر النهر بجيلان ثم يصب في بحر آبسكون [بحر قزوين]، ويقال إن ألفاً وأربعمائة نهر تصب في هذا البحر الذي يقال إن محيطه ألف ومائتا فرسخ، وإن في وسطه جزائر آهلة بالسكان، وقد سمعت هذا من كثيرين.

والآن أعود إلى رحلتي وما كان فيها:

ومن خندان إلى شميران ثلاثة فراسخ من صحراء جبلية كلها. وشميران قصبة ولاية طارم. وعلى حافة المدينة قلعة مرتفعة مشيدة على صخر صلد محاطة بثلاثة أسوار، وقد حفرت في وسطها قناة تجري حتى شاطيء النهر، ومنها يستخرجون الماء ويحملونه إلى القلعة، ويقيم بها ألف رجل مختار من أبناء عظماء الولاية، وذلك حتى لا يستطيع أحد إن يضل أو يثور.

ويقال إن لهذا الأمير قلاعاً كثيرة في ولاية الديلم، وإن العدل والأمن مستتبان بها، فلا يستطيع أحد أن يغتصب شيئاً من غيره، بل إن الناس هناك يدخلون مسجد الجمعة ويتركون أحذيتهم خارجه فلا يأخذها أحد.

ويكتب هذا الأمير اسمه هكذا (مرزبان الديلم جيل جيلان أبو صالح مولي أمير المؤمنين)، واسمه جستان إبراهيم[231]، وقد رأيت في شميران رجلاً طيباً من دربند، اسمه أبو الفضل خليفة بن علي الفيلسوف، كان رجلاً فاضلاً أضافنا وأكرمنا، وقد تناظرنا معاً واتصلت بيننا الصداقة. سألني علام عزمت فقلت إني أنوي الحج، قال: أريد إن تمر بنا في عودتك حتى أراك.

تبريز:

وفي السادس والعشرين من المحرم [3 آب] غادرت شميران، وفي الرابع عشر من صفر [21 آب] بلغت مدينة سراب وغادرتها في السادس عشر [23 آب]، ثم مررت بسعيد

---

(231) ـ من بني سلار ابقاه طغر بيك سنة 430 هـ 1038م، على ولاية الديلم وطبرستان

آباد وبلغت تبريز في العشرين من صفر [27 آب] كان ذلك في الخامس من شهر يور الشهر القديم.

وتبريز قصبة ولاية أذربيجان، وهي مدينة عامرة وقد قست طولها وعرضها، فكان كل منهما ألفاً وأربعمائة قدم، كان ملك ولاية أذربيجان يذكر هكذا في الخطبة: (الأمير الأجل سيف الدولة وشرف الملة أبو منصور وهسودان بن محمد مولى أمير المؤمنين). وحكوا لي أنه في ليلة الخميس السابع عشر من ربيع الأول 434 [هجرية، 5 كانون الأول 1042م] في الأيام المسترقة بعد العشاء، زلزلت الأرض، فخرب جزء من المدينة ولم يصب الجزء الآخر بسوء، ويقال إنه هلك فيها حينئذ أربعون ألف نسمة.

ورأيت في تبريز شاعراً اسمه قطران[232] يقول شعراً جميلاً، ولكنه لم يكن يجيد الفارسية، وقد زارني ومعه ديواني منجيك[233] والدقيقي[234]، وقرأ علي منهما، وسألني عما أشكل عليه من المعاني، فكنت أجيبه وهو يكتب ما أقول، ثم تلا علي شيئاً من أشعاره.

في الرابع عشر من ربيع الأول [19 أيلول] غادرت تبريز عن طريق مرند مع جماعة من جيش الأمير وهسودان، فسرنا حتى بلغنا خوي، ومن هنالك سرنا إلى بر كري بصحبة رسول ومن خوي إلى بركري ثلاثون فرسخاً، وقد بلغناها في الثاني عشر من جمادى الأولى [16 تشرين الثاني]، ومن هنالك ذهبنا إلى وان ثم إلى وسطان، وكان لحم الخنزير يباع في سوقها كما يباع الضأن، ويجلس نساؤها ورجالها أمام الحوانيت ويشربون [الخمر] بغير حياء.

أخلاط :

ومن هناك بلغنا مدينة أخلاط[235] في الثامن عشر من جمادى الأولى [22 تشرين الثاني]، وهي على الحدود ما بين بلاد المسلمين والأرمن. وبينها وبين بركري تسعة عشر فرسخاً. وعليها أمير اسمه نصر الدولة[236]، نيف على المائة وله أبناء كثيرون، أعطى كلاً

---

[232] - ابو منصور قطران الجبلي الأزدي، ينسب له (قوس نامة) ومدح الأمير البويهي أسد الدولة وقد توفي سنة 465هـ 1072م

[233] - ابو حسن علي بن محمد منجيك، شاعر مجيد بالفارسية ولكنه مشهور بالهجاء

[234] - ابو منصور محمد بن احمد من شعراء الدولتين الغزنوية والسامانية

[235] - تسمى ايضاً بالمصادر العربية خلاط

[236] - هو ثالث ابناء مروان بن روشك مؤسس الأسرة الكردية التي تحمل اسمه، حكم ديار بكر والجزيرة لصالح

منهم ولاية، ويتكلمون بها ثلاث لغات: العربية والفارسية والأرمنية، وأظن أنها سميت أخلاط لهذا السبب، والمعاملة هناك بالنقود النحاسية ورطلهم ثلاثمائة درهم.

في العشرين من جمادى الأول [24 تشرين الثاني] غادرنا أخلاط ونزلنا في رباط (كروانسراي)، كانت السماء تمطر ثلجاً والبرد قارساً، وقد غرسوا في جزء من الطريق عمداً ليسير المسافرون على هديها أيام الثلج والضباب. ثم بلغنا مدينة بطليس [بدليس] وهي واقعة في واد، وقد اشترينا منها عسلاً المائة مَن بدينار، حسب ما باعونا. ويقال إن بها من يجني في السنة الواحدة ثلاثمائة وأربعمائة جرة عسل.

وخرجنا منها فرأينا قلعة تسمى (قف انظر)، وتركناها إلى مكان به جامع يقال بناه أويس القرني[237] قدس الله روحه، ورأيت الناس عند حدوده يطوفون بالجبل ويقطعون أشجاراً تشبه السرو، فسألت ماذا تعملون بها فقالوا: نضع طرفاً من الشجرة في النار فيخرج هذا القطران من طرفها الآخر، فنجمعه في البئر ثم نضعه في أوعية ونحمله إلى الأطراف.

وهذه الولايات، التي ذكرت بعد أخلاط وقد اختصرنا ذكرها هنا، تابعة لميافارقين.

ثم سرنا إلى مدينة أرزن[238] وهي مدينة عامرة وجميلة فيها أنهار جارية وبساتين وأشجار وأسواق جميلة، ويبيع البرسيون[239] هناك المائة مَنْ عنباً بدينار واحد في شهر آذر [تشرين الثاني، كانون الأول] ويسمون هذا العنب رز إرمانوش.

ميافارقين:

وانتقلنا إلى مدينة ميافارقين[204] التي يفصلها عن أخلاط ثمانية وعشرون فرسخاً، ومن بلخ إليها عن الطريق الذي اجتزناه إثنان وخمسون وخمسمائة فرسخ، وقد دخلناها

البيزنطيين اولاً، ثم خضع لطغرل بيك عام 1045م

[237] - أُوَيْس القَرَنيّ هو اويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني، من بني قَرَن بن ردمان ابن ناجية بن مراد، احد سادة التابعين، مخضرم ادرك زمن النبي ولم يره كان عمر بن الخطاب يسأل اهل اليمن عنه فلما لقيه طلب منه ان يستغفر له، ففعل هذا لأن عمر قال: سمعت رسول الله يقول: (خير التابعين رجل يقال له اويس بن عامر كان به بياض، فدعا الله فأذهبه عنه، إلا موضع الدرهم في سرته) حديث صحيح وعند الحاكم عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يدخل الجنة بشفاعة رجل من امتي اكثر من ربيعة، ومضر » قال هشام: فأخبرني حوشب عن الحسن، انه اويس القرني قال ابو بكر بن عياش: فقلت لرجل من قوم اويس: « بأي شيء بلغ هذا؟ » قال: فضل الله يؤتيه من يشاء. قيل انه استشهد في معركة صفين في سنة 37 هـ الموافق لـ 658 م وهو مدفون بمحافظة الرقة شمالي شرقي سوريا.

[238] - تسمى الآن ارضروم او ارزنروم، وهي من مدن السريان القديمة

[239] - هم الفرس الزرادشتيون الذين لم يدخلوا الإسلام

[204] - يسميها السريان ميافرقاط وهي من مدنهم الرئيسية في الحقبة البيزنطية وما بعدها.

يوم الجمعة السادس والعشرين من جمادى الأولى 438 [هجرية، 23 تشرين الثاني 1046م]، وكانت أوراق الشجر حينئذ لا تزال خضراء، وميافارقين محاطة بسور عظيم من الحجر الأبيض الذي يزن الحجر منه خمسمائة مَن، وعلى بعد كل خمسين ذراعاً من هذا السور برج عظيم من الحجر نفسه، وفي أعلاه شرفات، وهي من الدقة بحيث تقول إن يد بناء ماهر أكملتها اليوم، ولهذه المدينة باب من ناحية الغرب له عتبة عليها طاق حجري، وقد ركب عليها باب من حديد لا خشب فيه، ويطول وصف مسجد الجمعة بها لو ذكرته، ولو أن صاحب الكتاب شرح كل شيء أتم الشرح[241].

وقد قال إن للميضأة التي عملت بهذا المسجد أربعين مرحاضاً، تمر أمامها قناتان كبيرتان، الأولى ظاهرة ليستعمل ماؤها، والثانية وهي تحت الأرض لحمل الثفل وللصرف، وخارج هذه المدينة في الربض أربطة (كروانسراها) وأسواق وحمامات ومسجد جامع آخر يصلون فيه الجمعة أيضاً، وفي ناحية الشمال سور آخر به مدينة تسمى المحدثة، به سوق ومسجد جامع وحمامات وكل ما ينبغي لمدينة من مهمات، ويذكر اسم سلطان الولاية في الخطبة هكذا: (الأمير الأعظم عز الإسلام سعد الدين نصر الدولة وشرف الملة أبو نصر أحمد)، وقد بلغ المائة من عمره، ويقال إنه حي.

والرطل هناك أربعمائة وثمانون درهماً، وقد بنى هذا الأمير مدينة على مسافة أربعة فراسخ من ميافارقين سماها الناصرية، ومن آمد إلى ميافارقين تسعة فراسخ.

آمد :

في السادس من شهر دي القديم [22 كانون الأول 1046م] بلغنا آمد[242]، التي شيدت على صخرة واحدة طولها ألفا قدم وعرضها كذلك، وهي محاطة بسور من الحجر الأسود، كل حجر منه يزن ما بين مائة وألف مَنّ، وأكثر هذه الحجارة ملتصق بعضه بالبعض الآخر من غير طين أو جص، وارتفاع السور عشرون ذراعاً، وعرضه عشر أذرع، وقد بني على بعد كل مائة ذراع برج نصف دائرته ثمانون ذراعاً، وشرفاته من هذا الحجر بعينه. وقد شيدت في عدة أماكن داخل المدينة سلالم من الحجر ليتيسر الصعود إلى السور، وقد بنيت قلعة على قمة كل برج، ولهذه المدينة أربعة أبواب كلها من الحديد الذي لا خشب فيه، يطل كل منها على جهة من الجهات الأصلية.

---

(241) - هذه الجملة من وضع ناسخ الكتاب كما يبدو، وهذه إشارة إلى ان النسخة المتداولة من سفر نامة مختصرة، وهو ما لفت نظر دارسي الرحلة

(242) - أيضاً من مدن السريان المهمة

ويسمى الباب الشرقي باب دجلة، والغربي باب الروم، والشمالي باب الأرمن، والجنوبي باب التل. وخارج هذا السور سور آخر من الحجر نفسه ارتفاعه عشر أذرع، ومن فوقه شرفات فيها ممر يتسع لحركة رجل كامل السلاح، بحيث يستطيع أن يقف فيه ويحارب بسهولة، ولهذا السور الخارجي أبواب من الحديد شيدت مخالفة لأبواب السور الداخلي، بحيث لو اجتاز السائر أبواب السور الأول وجب عليه اجتياز مسافة لبلوغ أبواب السور الثاني، وهذه المسافة تبلغ خمس عشرة ذراعاً، وفي وسط المدينة عين يتفجر ماؤها من الحجر الصلب، وهذا الماء من الغزارة بحيث يكفي لإدارة خمس طواحين، وهو غاية في العذوبة ولا يعرف أحد من أين ينبع، وفي المدينة أشجار وبساتين تسقى من هذا الماء. وأمير المدينة وحاكمها هو ابن نصر الدولة الذي مر ذكره.

وقد رأيت كثيراً من المدن والقلاع في أطراف العالم، في بلاد العرب والعجم، والهند، والترك، ولكني لم أر قط مثل مدينة آمد في أي مكان على وجه الأرض، ولا سمعت من أحد أنه رأى مكاناً آخر مثلها.

ومسجدها الجامع من الحجر الأسود، وليس مثله متانة وإحكاماً، وقد أقيم في وسطه مائتا عمود ونيف من الحجر، كل عمود قطعة واحدة، وفوق هذه الأعمدة عقود من الحجر، وقد نصبت فوقها أعمدة أقصر من تلك. وجميع أسقف المسجد على هيئة الجملون، وقد كملت نجارة ونقارة ونقشاً ودهناً.

وفي ساحته صخرة كبيرة عليها حوض كبير مستدير من الحجر، يبلغ ارتفاعه قامة رجل، ومحيط دائرته ذراعان، وفي وسط الحوض أنبوبة من النحاس يتفجر منها ماء صاف لا يظهر مدخله أو مخرجه، وبالمسجد ميضأة عظيمة جميلة الصنع، بحيث لا يوجد أحسن منها، وقد بنيت عمارات آمد كلها من الحجر الأسود، وأما ميافارقين فعماراتها من الحجر الأبيض.

وبالقرب من المسجد كنيسة عظيمة غنية بالزخارف، مبنية كلها من الحجر وقد فرشت أرضها بالرخام المنقوش، وقد رأيت فيها على الطارم، وهو مكان العبادة عند النصارى، باباً من الحديد المشبك لم أر مثله في أي مكان.

ومن آمد إلى حران طريقان، أحدهما لا عمران فيه وهو أربعون فرسخاً، والثاني به أماكن معمورة وقرى كثيرة معظم أهلها من النصارى [السريان]، وهو ستون فرسخاً.

وقد سرنا مع القافلة في هذا الطريق وكانت الصحراء غاية في الاستواء، إلا أن بها أحجارا كثيرة بحيث لا تستطيع الدواب أن تخطو خطوة واحدة من غير أن تعثر بحجر،

وقد بلغنا حران يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الآخر سنة 438 [هجرية 28 كانون الأول 1046م] الموافق الثاني والعشرين من شهر دي القديم، كان هواؤها في ذلك الوقت كهواء خراسان أيام النوروز.

وسرنا من هناك فبلغنا مدينة تسمى قرول حيث أضافنا رجل كريم في بيته، وهناك دخل أعرابي في الستين من عمره، فاقترب مني وقال: حفظني القرآن. فلقنته ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾[243] فكان يقرؤها معي، فلما وصلت إلى آية ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ﴾[244]. قال أقول أيضاً سورة ﴿أرايت الناس﴾ فقلت هذه السورة ليست قبل تلك، فقال ما سورة نقالة الحطب؟ ولم يعرف أنه قيل في سورة ﴿تبت﴾ حمالة الحطب لا نقالة الحطب، ولم يستطع هذا الأعرابي المشرف على الستين في تلك الليلة إن يحفظ سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ مع تكراري لها معه.

وفي يوم السبت الثاني من رجب سنة 438 [هجرية، 2 كانون الثاني 1047م] بلغنا مدينة سروج، واجتزنا الفرات في اليوم التالي ونزلنا في منبج[245] وهي أول مدن الشام، كان هذا أول بهمن القديم [كانون الثاني، شباط]، والطقس هناك معتدل جداً ولم يكن خارج المدينة عمارات قط، وقد سرت منها إلى حلب. ومن ميافارقين إليها إلى حلب مائة فرسخ.

حلب :

ورأيت مدينة حلب فإذا هي جميلة، بها سور عظيم قست ارتفاعه فكان خمساً وعشرين ذراعاً، وبها قلعة عظيمة مشيدة كلها من الصخر، ويمكن مقارنة حلب ببلخ، وهي مدينة عامرة أبنيتها متلاصقة وفيها تحصل المكوس [الضرائب] عما يمر بها من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق.

ويذهب اليها التجار من جميع هذه البلاد، ولها أربعة أبواب: باب اليهود، وباب الله، وباب الجنان، وباب أنطاكية. والوزن في سوقها بالرطل الظاهري، وهو أربعمائة وثمانون درهماً، وتقع حماة جنوبي حلب بعشرين فرسخاً، ومن بعدها حمص، ومن حلب إلى دمشق خمسون فرسخاً، وإلى أنطاكية اثنا عشر فرسخاً، وإلى طرابلس كذلك، ويقال إن من حلب حتى القسطنطينية مائتي فرسخ.

---

(243) - سورة الناس، الآية رقم 1.

(244) - سورة الناس الآية رقم 6.

(245) - مدينة تقع غربي الفرات وتتبع حالياً لمحافظة حلب السورية، وكانت ذات اهمية خاصة في الحقبة البيزنطية وتعد من مدن السريان المهمة

وفي الحادي عشر من رجب سنة 438 [هجرية 11 كانون الثاني 1047م] خرجنا من حلب، وعلى مسافة ثلاثة فراسخ منها قرية تسمى جند قنسرين[246].

معرة النعمان وأبو العلاء :

وفي اليوم التالي سرنا ستة فراسخ، وبلغنا مدينة سرمين[247] التي لا سور لها، وبعد مسيرة ستة فراسخ أخرى بلغنا معرة النعمان، وهي مدينة عامرة ولها سور مبني، وقد رأيت على بابها عموداً من الحجر عليه كتابة غير عربية، فسألت ما هذا فقيل إنه طلسم العقرب، حتى لا يكون في هذه المدينة عقرب أبداً ولا يأتي إليها، وإذا أحضر من الخارج وأطلق بها فإنه يهرب ولا يدخلها، وقد قست هذا العمود فكان ارتفاعه عشر أذرع، ورأيت أسواق معرة النعمان وافرة العمران، وقد بني مسجد الجمعة على مرتفع وسط المدينة بحيث يصعدون إليه من أي جانب يريدون، وذلك على ثلاث عشرة درجة.

وزراعة السكان كلها قمح وهو كثير. وفيها شجر وفير من التين والزيتون والفستق والعنب. ومياه المدينة من المطر والآبار.

وكان بهذه المدينة رجل أعمى اسمه أبو العلاء المعري[248]، وهو حاكمها، كان واسع الثراء عنده كثير من العبيد، وكان أهل البلد خدم له.

أما هو فقد تزهد فلبس الكليم [أي الخشن من الثياب] واعتكف في البيت، كان

---

[246] - هي عاصمة الجند الذي أطلق اسمه على الجزء الشمالي من بلاد الشام، التي قسمت إبان الفتح الإسلامي إلى خمسة أجناد هي جند فلسطين، وجند الأردن، وجند دمشق، وجند حمص، وجند قنسرين وقنسرين الآن قرية صغيرة مهملة وكانت مدينة مهمة لدى السريان وفي بداية الفتح العربي الإسلامي

[247] - من مدن السريان القديمة المعروفة، وهي الآن مدينة في محافظة إدلب

[248] - أبو العلاء المعري هو أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي المعري (363 -449هـ)، (973 -1057 م)، شاعر وفيلسوف وأديب لقب بـ (رهين المحبسين) بعد أن اعتزل الناس لبعض الوقت ولد في مدينة المعرة (معرة النعمان) في سوريا، ونشأ في بيت علم ووجاهة، وأصيب في الرابعة من عمره بالجدري فكفّ بصره، وكان نحيف الجسم نبغ في الشعر والتفسير والفلسفة درس علوم اللغة والأدب والحديث والتفسير والفقه والشعر على نفر من أهله، وفيهم القضاة والفقهاء والشعراء، وقرأ النحو في حلب على أصحاب ابن خالويه ويدل شعره ونثره على أنه كان عالما بالأديان والمذاهب وفي عقائد الفرق، وكان آية في معرفة التاريخ والأخبار. وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة كان على جانب عظيم من الذكاء والفهم وحدة الذهن والحفظ وتوقد الخاطر، وسافر في أواخر سنة 398 هـ إلى بغداد فزار دور كتبها وأخذ عن علمائها. وعاد إلى معرة النعمان سنة 400 هـ وشرع في التأليف والتصنيف ملازما بيته وكان كاتبه اسمه علي بن عبد الله بن أبي هاشم عاش المعري بعد اعتزاله زاهدا في الدنيا، معرضا عن لذاتها، لا يأكل لحم الحيوان حتى قيل انه لم يأكل اللحم 45 سنة، ولا ما ينتجه من سمن ولبن أو بيض وعسل، ولا يلبس من الثياب إلا الخشن ويعتبر المعري من الحكماء والنقاد وتوفي المعري عن 86 عاما ودفن في منزله بمعرة النعمان ولما مات وقف على قبره 84 شاعراً يرثونه وتعد رواية ناصر خسرو عنه فريدة من نوعها، ولم ينكر موضوع حكمه للمعرة أي كاتب آخر سواه

قوته نصف مَنّ من خبز الشعير لا يأكل غيره، وقد سمعت إن باب قصره مفتوح دائماً، وإن نوابه وملازميه يدبرون أمر المدينة، ولا يرجعون إليه إلا في الأمور الهامة، وهو لا يمنع نعمته أحداً، يصوم الدهر ويقوم الليل، ولا يشغل نفسه مطلقاً بأمر دنيوي، وقد سما المعري في الشعر والأدب إلى حد أن أفاضل الشام والمغرب والعراق يقرون بأنه لم يكن من يدانيه في هذا العصر ولا يكون.

وقد وضع كتاباً سماه (الفصول والغايات) ذكر به كلمات مرموزة وأمثالاً في لفظ فصيح عجيب، بحيث لا يقف الناس إلا على قليل منه، ولا يفهمه إلا من يقرأه عليه. وقد اتهموه (بأنك وضعت هذا الكتاب معارضة للقرآن)، يجلس حوله دائما أكثر من مائتي رجل، يحضرون من الأطراف يقرأون عليه الأدب والشعر. وسمعت أن له أكثر من مائة ألف بيت شعر. سأله رجل لم تعط الناس ما أفاء الله تبارك وتعالى عليك من وافر النعم ولا تقوت نفسك؟ فأجاب: إني لا أملك أكثر مما يقيم أودي، كان هذا الرجل حياً وأنا هناك.

حماة:

وفي الخامس عشر من رجب سنة 438 [هجرية 15 كانون الثاني 1047م]، سرنا إلى كويمات[249] ومنها إلى حماة، وهذه المدينة جميلة عامرة على شاطىء نهر العاصي، ويسمى هذا النهر بالعاصي لأنه يذهب إلى بلاد الروم، فهو يخرج من بلاد الإسلام ليدخل بلاد الكفر، وقد نصبوا عليه سواقي كثيرة.

ومن حماة طريقان، أحدهما بجانب الساحل غرب الشام، والآخر في الجنوب وهو ينتهي إلى دمشق. فسرنا عن طريق الساحل، وقد رأينا في الجبل عيناً[250] قيل إن ماءها يتفجر في الثلاثة أيام التالية لنصف شعبان من كل سنة، ثم ينضب فلا تخرج منه قطرة واحدة حتى السنة التالية، ويذهب الكثيرون لزيارة هذه العين تقرباً إلى الله سبحانه وتعالى. وقد بنيت هناك عمارات وأحواض، ولما سرنا من هناك بلغنا سهلاً كساه النرجس

---

(249) - قد تكون قرية خان شيخون باعتبارها المحطة الثانية بعد المعرة باتجاه حماة.

(250) - هذه العين مشهورة جداً ذكرها الكثير من المؤرخين والرحالة وتسمى فوارة الدير أي دير مار جرجس، وقد وصفها ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار، ج3 ص540، بقوله: (ووادي الفوار قريب من حصن الأكراد غرباً بشمال على الطريق السالكة، صفته هناك صفة بئر قائمة في الأرض وأسفل البئر سرداب يمتد إلى الشمال يفور كل اسبوع يوماً واحداً لا غير فيسقى به ارض ومزروعات وبقية الأيام يابس لا ماء فيه، ويسمع له دوي كالرعد قبل فورانه)، كما ذكرها بوركهاردت في رحلته إلى الشام والأرض المقدسة

ثوبا أبيض، وذهبنا بعد ذلك إلى مدينة تسمى عرقة وبعد مسيرة فرسخين منها بلغنا شاطىء البحر فتبعناه ناحية الجنوب، حتى بلغنا مدينة طرابلس بعد مسيرة خمسة فراسخ.

طرابلس الشام :

ومن حلب إلى طرابلس أربعون فرسخاً عن هذا الطريق. كان بلوغنا إياها يوم السبت الخامس من شعبان [6 شباط] وحول المدينة المزارع والبساتين، وكثير من قصب السكر وأشجار النارنج والترنج والموز والليمون والتمر، كان عسل السكر يجمع حينذاك.

ومدينة طرابلس مشيدة بحيث أن ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر، فإذا ماج علت أمواجه السور، أما الجانب المطل على اليابس فبه خندق عظيم عليه باب حديدي محكم، وفي الجانب الشرقي من المدينة قلعة من الحجر المصقول عليها شرفات ومقاتلات من الحجر نفسه، وعلى قمتها عرادات[251] لوقايتها من الروم، فهم يخافون أن يغير هؤلاء عليها بالسفن، ومساحة المدينة ألف ذراع مربع، وأربطتها أربع أو خمس طبقات، ومنها ما هو ست طبقات أيضاً، وشوارعها وأسواقها جميلة ونظيفة حتى لتظن إن كل سوق قصر مزين. وقد رأيت بطرابلس ما رأيت في بلاد العجم من الأطعمة والفواكه بل أحسن منه مائة مرة، وفي وسط المدينة جامع عظيم نظيف جميل النقش حصين، وفي ساحته قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام، في وسطه فواره من النحاس الأصفر.

وفي السوق مشرعة [أي: نبعة جارية] ذات خمسة صنابير، يخرج منها ماء كثير يأخذ منه الناس حاجتهم ويفيض باقيه على الأرض، ويصرف في البحر. ويقال إن بها عشرين ألف رجل، ويتبعها كثير من السواد والقرى.

ويصنعون بها الورق الجميل مثل الورق السمرقندي بل أحسن منه، وهي تابعة لسلطان مصر[252].

قيل وسبب ذلك أنه في زمن ما أغار عليها جيش الروم الكفار، فحاربه جند سلطان مصر وقهروه، فرفع السلطان الخراج عنها وأقام بها جيشاً من قبله على رأسه قائد لحمايتها من العدو[253].

---

(251) – معدات حربية تشبه المنجنيق تستخدم لقذف المقذوفات النفطية غالباً.

(252) – أي انها كانت خاضعة للخلافة الفاطمية التي كان مركزها في القاهرة

(253) – هذا مؤشر على ان خطر الروم القادم من جهة البحر كان ما يزال ماثلاً بعد اجتياح الإمبراطور البيزنطي

وتحصل المكوس بهذه المدينة، فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والفرنج والأندلس والمغرب العشر للسلطان، فيدفع منه أرزاق الجند. وللسلطان بها سفن تسافر إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة، وسكان طرابلس كلهم شيعة، وقد شيد الشيعة مساجد جميلة في كل البلاد، وهناك بيوت على مثال الأربطة، ولكن لا يسكنها أحد وتسمى مشاهد، ولا يوجد خارج طرابلس بيوت أبداً عدا مشهدين أو ثلاثة من التي مر ذكرها.

وغادرت طرابلس وسرت على شاطيء البحر ناحية الجنوب، فرأيت على مسافة فرسخ واحد قلعة تسمى قلمون في داخلها عين ماء، وسرت من هناك إلى طرابزون[254]، ومن طرابلس إليها خمسة فراسخ، ومنها بلغنا مدينة جبيل، وهي مثلثة تطل زاوية منها على البحر ويحيطها سور حصين شاهق الارتفاع، وحولها النخيل وغيره من أشجار المناطق الحارة، وقد رأيت في يد غلام بها وردة حمراء وأخرى بيضاء حديثتي القطف (تازة)، كان ذلك في اليوم الخامس من اسبندارمذ [اسفند] الشهر القديم [شباط] فبراير سنة 415 من تاريخ العجم.

بيروت:

ومن هناك بلغنا بيروت، فرأيت بها طاقاً حجرياً شق الطريق في وسطه، وقد قدرت ارتفاعه بخمسين ذراعاً، وجانباه من الحجر الأبيض تزن كل قطعة منه أكثر من ألف مَنّ، وعلى جانبيه بناء من الطوب النيىء ارتفاعه عشرون ذراعاً، وقد نصبت على قمته أعمدة من الرخام طول كل منها ثمانية أذرع، وهي سميكة بحيث لا يستطيع رجلان أن يحيطاها بأذرعهما إلا بصعوبة، وعلى رأس هذه العمد عقود على الجانبين كلها من الحجر المنحوت، الذي لا يفصله عن بعضه جص أو طين، وفي الوسط تماماً الطاق الكبير، يعلوها بخمسين ذراعاً، وقد قست كل حجر منه فإذا به ثمانية أذرع طولاً وأربعة عرضاً، وأظن الحجر الواحد يزن سبعة آلاف مَنّ.

وقد نقشت هذه الحجارة بدقة ومهارة، بحيث يقل ما يشابهها مما ينقش على الخشب، ولم يبق هناك أبنية غير هذا الطاق، وقد سألت أي مكان هذا؟ فقيل لي: سمعنا أنه باب حديقة فرعون. وهو بالغ في القدم، والوادي المجاور لهذه الناحية مملوء بأعمدة الرخام، تيجانها وجذوعها، وهي من الرخام المدور والمربع والمسدس والمثمن، وهي من الصلابة بحيث

نقفور فوكاس لبلاد الشام قبل نحو ثلاثة أرباع قرن

[254] - هذا الاسم غريب ولكن المنطقة المذكورة تسمى الآن حاماته وهي واقعة جنوب طرابلس وشمال جبيل

لا يؤثر فيها الحديد، وليس في هذه الجهة جبل حتى يقال إنهم جلبوها منه، وهناك حجارة تبدو كأنها معجونة، (جرانيت) وهي تفل الحديد، وفي نواحي الشام أكثر من خمسمائة ألف من أعمدة وتيجان وجذوع، ولا يعرف أحد ماذا كانت ولا من أين نقلت.

صيدا :

ثم بلغنا مدينة صيدا، وهي على شاطىء البحر أيضاً، يزرع بها قصب السكر بوفرة، وبها قلعة حجرية محكمة، ولها ثلاث بوابات، وفيها مسجد جمعة جميل يبعث في النفس هيبة تامة، وقد فرش كله بالحصير المنقوش.

وفي صيدا سوق جميل نظيف، وقد ظننت حين رأيته أنه زين خاصة لمقدم السلطان أو لأن بشرى سعيدة أذيعت، فلما سألت قيل لي هكذا عادة هذه المدينة دائماً. وفيها حدائق وأشجار منسقة حتى لتقول إن سلطانا هاوياً غرسها، وفي كل من هذه الحدائق كشك، وأغلب شجرها مثمر.

صور :

وبعد مسيرة خمسة فراسخ على شاطىء البحر بلغنا مدينة صور وهي ساحلية أيضاً، وقد بنيت على صخرة امتدت في الماء بحيث أن الجزء الواقع على اليابس من قلعتها لا يزيد على مائة ذراع، والباقي في ماء البحر، والقلعة مبنية بالحجر المنحوت الذي سدت فجواته بالقار، حتى لا يدخل الماء من خلله.

وقد قدرت المدينة بألف ذراع مربع، وأربطتها من خمس أو ست طبقات، وكلها متلاصقة وفي كثير منها نافورات. وأسواقها جميلة كثيرة الخيرات.

وتعرف مدينة صور بين مدن ساحل الشام بالثراء. ومعظم سكانها شيعة، والقاضي هناك رجل سني اسمه ابن أبي عقيل[255]، وهو رجل طيب ثري، وقد بني على باب المدينة مشهد به كثير من السجاجيد والحصير والقناديل والثريات المذهبة والمفضضة. وصور مشيدة على مرتفع وتأتيها المياه من الجبل، وقد شيد على بابها عقود حجرية يمر من فوقها إلى المدينة، وفي الجبل واد مقابل لها إذا سار السائر فيه ثمانية عشر فرسخاً ناحية المشرق بلغ دمشق.

---

[255] - هو القاضي عين الدولة ابن عقيل، تمرد على المستنصر الفاطمي وبقيت صور في ولاية ابنائه من بعده حتى استعادها منير الدين الجيوشي لصالح القاهرة عام 482هـ.

[فلسطين]

عكا:

بعد إن سرنا سبعة فراسخ من صور بلغنا عكة[256]، وتكتب هناك (مدينة عكة)، وهي مشيدة على مرتفع بعضه من أرض وعرة وبعضه سهل، ولم تشيد المدينة في الوادي المنخفض مخافة غلبة ماء البحر عليها، وخشية أمواجه التي تمع على الساحل. ومسجد الجمعة في وسط المدينة وهو أعلى مبانيها، وأعمدته كلها من الرخام، ويقع قبر صالح[257] النبي عليه السلام خارجه على يمين القبلة، وساحته بعضها من الحجر وبعضها الآخر مزروع، ويقال إن آدم عليه السلام كان يزرع هناك.

ومسحت المدينة فكان طولها ألفي ذراع وعرضها خمسمائة، ولها قلعة غاية في الإحكام يطل جانباها الغربي والجنوبي على البحر، وعلى الأخير ميناء.

ومعظم مدن الساحل كذلك، والميناء اسم يطلق على الجهة التي بنيت للمحافظة على السفن، وهي تشبه (الإسطبل)، وظهرها ناحية المدينة وحائطاها داخلان في البحر، وعلى امتدادهما مدخل مفتوح طوله خمسون ذراعاً، وقد شدت السلاسل بين الحائطين، فإذا أريد إدخال سفينة إلى الميناء أرخيت السلسلة حتى تغوص في الماء فتمر السفينة فوقها ثم تشد، حتى لا يستطيع عدو أن يقصدها بسوء[258]. وعند الباب الشرقي على اليد اليسرى عين يصلون إلى مائها بنزول ست وعشرين درجة وتسمى عين البقر، ويقال إن آدم عليه السلام هو الذي كشفها، كان يسقي منها بقرته ولذا سميت عين البقر.

وحين يذهب المسافر من عكة ناحية المشرق يجد جبلاً به مشاهد الأنبياء عليهم السلام، وهذا الجبل واقع على جانب الطريق المؤدي إلى الرملة.

وقد عزمت على التبرك بزيارة هذه المشاهد والتقرب إلى الله تبارك وتعالى، وقد قال سكان عكة إن في الطريق أشراراً يتعرضون لمن يرون من الغرباء وينهبون ما معهم، فأودعت نفقتي بمسجد عكة وخرجت من بابها الشرقي يوم السبت الثالث والعشرين من

---

[256] - تقع عكا في الطرف الشمالي لخليج عكا، بين راس الناقورة شمالاً، وجبل الكرمل جنوباً. وهي من اعرق واقدم المدن الفلسطينية إذ تأسست في الألف الثالثة قبل الميلاد، واستمرت حتى العصر الحديث من دون انقطاع

[257] - توجد الآن في عكا مقبرة باسم مقبرة النبي صالح، ومن المرجح ان يكون المقام المذكور فيها ولكنه نسي واهمل مع الزمن

[258] - تحدث عن بناء هذا الميناء بهذه الطريقة المحكمة المقدسي البشاري

شعبان سنة 438 [هجرية 5 آذار 1047م]، وقد زرت في اليوم الأول قبر عك باني المدينة[259]، وهو أحد الصالحين الأولياء، وكنت حائراً إذ لم يكن معي دليل يرشدني، وفجأة تعرفت في اليوم نفسه بفضل من الله تبارك وتعالى برجل من العجم، أتى من أذربيجان للتبرك بزيارة المشاهد مرة أخرى، فشكرت الله تبارك وتعالى هبته، وصليت ركعتين، وسجدت له شكراً على توفيقه إياي، لأنه في بعزمي.

ثم بلغت قرية تسمى بروة[260] وزرت قبر عيش وشمعون عليهما السلام، ومن هناك بلغت مغارك التي تسمى دامون[261] فزرت المشهد المعروف بقبر ذي الكفل عليه السلام، ثم واصلت السير إلى قرية أخرى تسمى إعبلين[262] وبها قبر هود عليه السلام، فزرته كان بحظيرته شجرة الخرتوت[263]، وكذلك زرت هناك قبر النبي عزير عليه السلام، ثم يممت وجهي شطر الجنوب فبلغت قرية تسمى حظيرة[264] وفي الجانب الغربي منها واد به عين ماء عذب تخرج من الصخر، وقد بني أمامها مسجد على الصخر به بيتان صخريان فوقهما سقف من الحجر أيضاً، وعليهما باب صغير يستطيع الزائر دخوله بصعوبة، وهناك قبران متجاوران أحدهما قبر شعيب عليه السلام والثاني قبر ابنته التي كانت زوج موسى عليه السلام. ويعنى أهل هذه القرية بهذا المسجد عناية فائقة من تنظيف وإنارة وغير ذلك.

ومن هناك بلغت قرية تسمى إربل[265] وفي ناحية القبلة منها جبل في وسطه حظيرة

---

(259) - هذا الكلام من الخرافات لأن اسم عكو كان معروفاً منذ العصر الكنعاني القديم [راجع الموسوعة الفلسطينية [مادة عكا]

(260) - تقع قرية البروة على مسافة 9 كم إلى الشرق من عكا وقد عثر في القرية على اثار قديمة فيها حجارة منحوتة، وهي مسقط راس شاعر فلسطين الكبير محمود درويش

(261) - تقع قرية الدامون على مسافة 11 كم جنوب شرق عكا، ذكرها ابو الفداء في تقويم البلدان وقال إنه زار فيها مشهد النبي ذو الكفل

(262) - تقع إعبلين في الجليل الأدنى وذكرت إعبلين في العصور القديمة، اما في زمن الحروب الصليبيه فقد سميت ببيت ابلين

(263) - من الواضح ان المقصود هو شجر الخرنوب الذي يكثر في هذه المنطقة والخطأ في ترتيب النقط وهو خطأ نسخي

(264) - المقصود قرية حطين وهو خطأ نسخي لتشابه رسم الكلمتين تقع على بعد 9 كم غرب مدينة طبريا وترتفع 100م عن سطح البحر وكانت تذكر في العهد الروماني باسم (كفار حطايا)، وكان يقال لها ايضا (حطيم) ذكرها الصالح الهروي المتوفى سنة 711 هـ، وقال انها قرية قديمة بها قبر (شعيب) وزوجته، كما توهم (ياقوت الحموي) بذكره ان القبر يقع في قرية (الخيارة) قرب حطين، ولكن لم يتبين ان هنالك قرية بهذا الاسم في المكان نفسه، بل إن القبر موجود في ظاهر حطين الجنوبي، وهو مكان مقدس عند الطائفة الدرزية، يزورونه في نيسان (ابريل) من كل عام

(265) - من المرجح ان تكون قرية اربل القديمة هي قرية وادي الحمام الحالية نظراً لأنها تقع بين جبل ما يزال حتى اليوم يسمى جبل اربل او اربيل وبين بحيرة طبرية

بها أربعة قبور لأربعة من أبناء يعقوب إخوة يوسف عليهم السلام، وذهبت من هناك فرأيت تلاً من تحته غار فيه قبر أم موسى عليه السلام فزرته.

طبرية :

ثم خرجت فبدا لي واد في آخره بحر صغير تقع عليه طبرية طوله ستة فراسخ وعرضه ثلاثة وماؤه عذب لذيذ، وتقع غربية المدينة.

وتصرف في هذا البحر كل مياه الحمامات وفضلات المدينة وكذلك يشرب منه سكانها وسكان الولاية التي على شاطئه، وسمعت أن أميراً دخل هذه المدينة ذات مرة فأمر بسد قنوات القاذورات والماء الملوث حتى لا تفضي إلى البحر، فنتن ماؤه وأصبح لا يصلح للشرب، فأمر ثانية بفتح هذه القنوات فعاد ماء البحر عذباً.

ولطبرية سور حصين يبدأ من شاطئ البحر ويمتد حول المدينة، والطرف المحدود بالبحر لا حائط له، وبها مبان كثيرة في وسط البحر، فإن قاعه صخري وقد شيدت هناك مناظر على رؤوس أعمدة رخامية أساسها في الماء.

وفي بحر طبرية سمك كثير، ومسجد الجمعة في وسط المدينة، وعند بابه عين ماء بني عند رأسها حمام ماؤه ساخن، فلا يستطيع مستحم أن يصبه على جسده من غير أن يمزجه بماء بارد.

ويقال إن الذي بناه هو سليمان بن داود عليه السلام[266] وقد دخلته.

وفي الجانب الغربي من مدينة طبرية مسجد اسمه مسجد الياسمين، وهو مسجد جميل في وسطه ساحة كبيرة بها محاريب وحولها الياسمين الذي سمي به المسجد، وفي رواق بالجانب الشرقي قبر يوشع بن نون، وتحت هذه الساحة قبور سبعين نبياً عليهم السلام قتلهم بنو إسرائيل.

وجنوبي طبرية بحر لوط[267]، وهو مالح المياه، ويصب به ماء بحر طبرية، وكانت مدينة لوط تقع على شاطئه ولم يبق منها أثر قط، وسمعت من إنسان أن في مياه بحر لوط المالحة شيئاً كالحجارة السوداء غير صلب، يشبه [روث][268] البقر، يخرج من قاعه

---

(266) - جرت العادة لدى الرحالة المسلمين على نسبة اي اثر قديم إلى النبي داود او ابنه النبي سليمان وهي لا تستند إلى اي اساس تاريخي

(267) - البحر الميت

(268) - من المؤكد ان كلمة روث او ما يشبهها ساقطة، لأن المادة المستخرجة من البحر الميت تشبه حقاً روث البقر، وليس

فيأخذه السكان ويقطعونه ويحملونه إلى المدن والولايات. ويقال إنه إذا وضعت قطعة منه تحت شجرة يمتنع الدود عنها من غير إن يمس جذرها أذى منه، فلا يتلف البستان مما تحت الأرض من دود وحشرات، والعهدة على الراوي، وقيل كذلك إن العطارين يستخدمونه لأنه يبعد دودة تصيب البذور اسمها النقرة.

وفي طبرية يصنعون الحصير، ومنه حصير الصلاة، وتشتري الواحدة منها بخمسة جنيهات مغربية. وفي الجانب الغربي من المدينة جبل فيه قطعة من حجر المرمر مكتوب عليها بخط عبري إن الثريا كانت على رأس الحمل ساعة الكتابة، ويقع قبر أبي هريرة خارج المدينة ناحية القبلة، ولكن لا يستطيع أحد زيارته لأن السكان هناك شيعة، فإذا ذهب أحد للزيارة تجمع عليه الأطفال وتحرشوا به وحملوا عليه وقذفوه بالحجارة، ولهذا لم أستطع زيارته.

سرت بعد ذلك إلى قرية تسمى كفركنّة[269] بجانبها تل بنيت على قمته صومعة جميلة بها قبر النبي يونس عليه السلام، وعليها باب متين بقربه بئر ماؤها عذب[270].

حيفا :

وقد عدت إلى عكا بعد زيارة هذا المشهد، وبينهما مسافة أربعة فراسخ، فمكثت بها يوماً واحداً ثم غادرتها إلى قرية تسمى حيفا[271]، وفي طريق به كثير من هذا الرمل الذي يستخدمه صياغ العجم والمسمى بالرمل المكي.

وحيفا مشيدة على البحر وبها نخل وأشجار كثيرة، وهناك عمال يصنعون السفن البحرية المسماة بالجودي.

وسرنا بعد ذلك فبلغنا بعد مسيرة فرسخ واحد قرية أخرى تسمى كنيسة[272]، وعندها ينحرف الطريق عن البحر ويدخل الجبل ناحية المشرق، حيث الصحروات

البقر نفسه، وهكذا يستقيم المعنى، وهذه المادة تسمى طين البحر الميت

(269) - كفر كنا بلدة عربية فلسطينية تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة الناصرة وهناك من يعتقد بأنها هي قانا الجليل التي ذكرت في العهد الجديد.

(270) - تقوم في المكان اليوم قرية تسمى المشهد وهي في قضاء الناصرة

(271) - مدينة ساحلية في الطرف الشمالي للسهل الساحلي الفلسطيني، وهي ميناء على البحر المتوسط، لن يكن لها شان يذكر في العهود الإسلامية، وقد اخذت اهميتها قبيل زيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني، ثم تطورت بشكل كبير في السنوات الأخيرة من العهد العثماني وإبان الانتداب البريطاني، حيث اصبحت اهم ميناء في شرقي المتوسط، وواحدة من اهم المدن الفلسطينية

(272) - عثر إلى الجنوب من حيفا في تل السملك على كنسية بيزنطية

والمحاجر التي تسمى وادي التماسيح[273]، ويعود لمحاذاة الشاطىء بعد مسيرة فرسخين، وهناك رأينا عظام حيوانات بحرية كثيرة مختلطة بالتراب والطين، وقد تحجرت من كثرة ما ثار عليها من الموج.

قيسارية :

وقمنا من هناك وسرنا حتى بلغنا مدينة تسمى قيسارية[274] بينها وبين عكا سبعة فراسخ، وهي مدينة جميلة بها ماء جار ونخيل وأشجار النارنج والترنج، ولها سور حصين له باب حديدي، وبها عيون ماء جارية ومسجدها الجامع جميل، ويرى المصلون البحر ويتمتعون به وهم جلوس في ساحته، وهناك جرة كبيرة من الرخام يشبه الخزف الصيني، وهي عميقة بحيث تتسع مائة مَنّ من ماء.

في يوم السبت آخر شعبان [10 آذار]، قمنا من هناك وسرنا مقدار فرسخ عن طريق الرمل المكي، وقد رأيت في الطريق كله، سهله وجبله، كثيراً من شجر التين والزيتون.

وبعد بضعة فراسخ بلغنا مدينة تسمى كفرسابا[275] أو كفر سلام[276] ومنها حتى الرملة ثلاثة فراسخ في طريق كله شجر كالذي ذكرت.

الرملة :

وفي يوم الأحد غرة رمضان [11 آذار] بلغنا الرملة، ومن قيسارية إليها ثمانية

---

[273] - هذه المواصفات تنطبق على تل السمك حيث ما تزال القواقع وبقايا الأحياء البحرية عند قاعدته ظاهرة للعيان [راجع مادة حيفا في الموسوعة الفلسطينية]

[274] - قرية عربية تقع بعد 42 كم جنوب حيفا وهي من المدن الفلسطينية ذات التاريخ العريق، وذكرت في فتوح البلدان، وما تزال ابنيتها التي تعود للعصر الروماني قائمة ومدرجها الأثري شاهد على عظمتها القديمة، وقد اطلق عليها هذه الاسم هيرود الكبير عندما جدد بناءها تكريماً لأغسطس قيصر.

[275] - تقع قرية كفر سابا على طريق يافا – طولكرم العام الذي يمر على بعد 2.5 كم الى الشرق منها، وقد انشئت كفر سابا على بعد 4 كم جنوبي شرقي خربة سابية، وقد ذكرها المقدسي البشاري باسم قرية كفر سابا محطة على الطريق.

[276] - في النص الفارسي الذي بين ايدينا يأتي ذكر كفر سابا وكفر سلام، وليس أو كفر سلام، وهما قريتان مختلفتان تقعان على طريق السفر المعروف وتمثلان محطتان للمسافرين، وليستا قرية واحدة وقد ذكر المقدسي كفر سلام في القرن الرابع الهجري بقوله إنها من قرى قيسارية، كبيرة أهلة، بها جامع على الجادة. وأما ياقوت الحموي فقال في معجم البلدان، في القرن السابع الهجري إنها قرية بينها وبين قيسارية اربعة فراسخ بينها وبين نابلس من نواحي فلسطين وهنالك اعتقاد لدى الكثير من الباحثين بأن قرية راس العين الحالية التي تبعد عن القدس 38 كم باتجاه الشمال الغربي هي نفسها كفر سلام.

فراسخ، وهي مدينة كبيرة بها سور حصين من الحجر والجص، مرتفع ومتين وعليه أبواب من حديد، ومن المدينة إلى شاطئ البحر ثلاثة فراسخ، والماء هناك من المطر، ولذا فقد بني في كل منزل حوض لجمع مياه المطر، فيبقى ذخيرة دائمة، وفي وسط مسجد الجمعة أحواض تمتلئ بالماء، فيأخذ منه من يشاء، ومساحة الجامع ثلاثمائة قدم في مائتين، وقد كتب أمام الصفة إنه في الخامس عشر من شهر محرم سنة 425 [هجرية، 11 كانون الأول 1033م] زلزلت الأرض بشدة هنا، فخربت عمارات كثيرة، ولم يصب أحد من السكان بسوء.

وفي هذه المدينة رخام كثير. وقد زينت معظم القصور والبيوت بالرخام المنقوش، الكثير الزينة، ويقطع الرخام بمنشار لا أسنان له وبالرمل المكي، ويعملون المنشار على أعمدة الرخام بالطول لا بالعرض فيخرجون منه ألواحاً كألواح الخشب، ورأيت هناك أنواعاً وألواناً من الرخام: من الملمع والأخضر والأحمر والأسود والأبيض، ومن كل لون.

وفي الرملة صنف من التين ليس أحسن منه في أي مكان يصدر منها إلى جميع البلاد. وتسمى مدينة الرملة في الشام والمغرب [مدينة] فلسطين.

وفي الثالث من رمضان غادرت الرملة فبلغت قرية تسمى خاتون[277] وقد سرت منها إلى قرية أخرى تسمى قرية العنب[278]، وقد رأينا في الطريق كثيراً من نبات السذاب[279]، الذي ينبت برياً على الجبال وفي الصحراء، وقد رأيت في هذه القرية عين ماء عذب تخرج من الصخر، وقد بنيت هناك أحواض وعمارات، وقد ذهبنا صاعدين وكنا نحسب أنا بعد صعود الجبل سنهبط إلى المدينة في الطرف الآخر، ولكنا وجدنا أمامنا بعد أن صعدنا قليلاً، سهلاً واسعاً بعضه صخري وبعضه كثير التراب، وعلى رأس جبل فيه تقع مدينة بيت المقدس. ومن طرابلس التي هي على الساحل إليها ستة وخمسون فرسخاً، ومن بلخ إليها ستة وسبعون وثمانمائة فرسخ.

---

(277) - من المرجح لدى الباحثين ان ثمة خطأ من الناسخ والاسم الصحيح هو اللطرون واللطرون تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة الرملة على بعد 14كم منها، وترتفع 250 م عن سطح البحر، يحيط بها اراضي قرى بيت سوسين والخلايل وبيت محسير (قضاء القدس) وتحتوي القرية على انقاض حصن ومدافن منقورة في الصخر وتقع بجوارها خربة جديرة وخربة الصفار.

(278) - تسمى الآن قرية ابو غوش وهي تقع على بعد 13 كم غربي مدينة القدس، كان فيها خان للمسافرين بني مكان قلعة رومانية

(279) - السذاب ويعرف ايضا باسم الفيجن وهو نبات عشبي معمر بري وزراعي ويتكاثر بالبذور يعرف علميا باسم Ruta graveolens

القدس:

وفي الخامس من رمضان سنة 438 [هجرية 16 آذار 1047م] بلغنا بيت المقدس، كان قد مضى على خروجنا من بلدنا سنة شمسية، وطوال رحلتنا لم نقر في مكان قط ولا وجدنا راحة كاملة، وأهل الشام وأطرافها يسمون بيت المقدس القدس، ويذهب إلى القدس في موسم الحج من لا يستطيع الذهاب إلى مكة من أهل هذه الولايات، فيتوجه إلى الموقف ويضحي ضحية العيد كما هي العادة، ويحضر هناك لتأدية السُنّة في بعض السنين، أكثر من عشرين ألف شخص في أوائل ذي الحجة ومعهم أبناؤهم.

كذلك يأتي لزيارة بيت المقدس من ديار الروم كثير من النصارى واليهود، وذلك لزيارة الكنيسة والكنيش[280] هناك، وهناك كنيسة عظيمة سيأتي وصفها في مكانه. وسواد ورساتيق بيت المقدس جبلية كلها، والزراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء، والخيرات بها كثيرة ورخيصة، وفيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف مَنٍّ من زيت الزيتون يحفظونها في الآبار والأحواض ويصدرونها إلى أطراف العالم، ويقال إنه لا يحدث قحط في بلاد الشام، وسمعت من ثقات أن ولياً رأى النبي عليه السلام في المنام، فقال له: ساعدنا في معاشنا يا رسول الله. فأجابه النبي عليه السلام: (على خبز الشام وزيته).

والآن أصف مدينة بيت المقدس.

وصف بيت المقدس

هي مدينة مشيدة على قمة الجبل، ليس بها ماء غير الأمطار، ورساتيقها ذات عيون، والمدينة محاطة بسور حصين من الحجر والجص، وعليها بوابات حديدية، وليس بقربها أشجار قط، فإنها على رأس صخر، وهي مدينة كبيرة كان بها في ذلك الوقت عشرون ألف رجل، وبها أسواق جميلة وأبنية عالية، وكل أرضها مبلطة بالحجارة، وقد سووا الجهات الجبلية والمرتفعات وجعلوها مسطحة، بحيث تغسل الأرض كلها وتنظف حين تنزل الأمطار.

وفي المدينة صناع كثيرون، لكل جماعة منهم سوق خاصة، والجامع شرقي المدينة وسوره هو سورها الشرقي.

---

[280] - الكنيش او الكناش وهو اسم معبد اليهود ويعني المجمع

وبعد الجامع سهل كبير مستو يسمى الساهرة، يقال: إنه سيكون ساحة القيامة والحشر، ولهذا يحضر إليه خلق كثيرون من أطراف العالم ويقيمون به حتى يموتوا، فإذا جاء وعد الله كانوا بأرض الميعاد. اللهم عفوك ورحمتك بعبيدك ذلك اليوم آمين يا رب العالمين.

وعلى حافة هذا السهل مقبرة عظيمة ومقابر كثير من الصالحين، يصلي بها الناس ويرفعون بالدعاء أيديهم فيقضي الله حاجاتهم. اللهم تقبل حاجاتنا واغفر ذنوبنا وسيئاتنا وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

وادي جهنم :

وبين الجامع وسهل الساهرة واد عظيم الانخفاض كأنه خندق، وبه أبنية كثيرة على نسق أبنية الأقدمين، ورأيت قبة من الحجر المنحوت مقامة على بيت لم أر أعجب منها، حتى أن الناظر إليها ليسأل نفسه كيف رفعت في مكانها. ويقول العامة إنها بيت فرعون واسم هذا الوادي وادي جهنم، وقد سألت عمن أطلق هذا اللقب عليه؟ فقيل: إن عمر رضي الله عنه أنزل جيشه أيام خلافته في سهل الساهرة هذا، فلما رأى الوادي قال هذا وادي جهنم.

ويقول العوام إن من يذهب إلى نهايته يسمع صياح أهل جهنم، فإن الصدى يرتفع من هناك. وقد ذهبت فلم أسمع شيئاً.

عين سلوان :

وحين يسير السائر من المدينة جنوباً مسافة نصف فرسخ، وينزل المنحدر، يجد عين ماء تنبع من الصخر تسمى عين سلوان، وقد أقيمت عندها عمارات كثيرة، ويمر ماء هذه العين بقرية شيدوا فيها عمارات كثيرة وغرسوا بها البساتين.

ويقال إن من يستحم من ماء هذه العين يشفى مما ألم به من الأوصاب والأمراض المزمنة، وقد وقفوا عليها مالاً كثيراً، وفي بيت المقدس مستشفى عظيم[281] عليه أوقاف طائلة ويصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء، وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف المقرر لهذا المستشفى.

---

[281] - من الواضح أن هذا المستشفى قد بني في أثناء حكم الفاطميين لفلسطين، بدليل أنه كان في أوج نشاطه عندما زار ناصر خسرو القدس

الحرم القدسي :

ومسجد الجمعة على حافة المدينة من الناحية الشرقية، وأحد حوائط المسجد على حافة وادي جهنم، وحين ينظر السائر من خارج المسجد يرى الحائط المطل على هذا الوادي يرتفع مائة ذراع من الحجر الكبير، الذي لا يفصله عن بعضه ملاط أو جص. والحوائط داخل المسجد ذات ارتفاع مستو. وقد بني المسجد في هذا المكان لوجود الصخرة به، وهي الصخرة التي أمر الله عز وجل موسى عليه السلام أن يتخذها قبلة، فلما قضي هذا الأمر واتخذها موسى قبلة له لم يعمر كثيراً بل عجلت به المنية حتى إذا كانت أيام سليمان عليه السلام.

وكانت الصخرة قبلة بنى مسجداً حولها، بحيث أصبحت في وسطه. وظلت الصخرة قبلة حتى عهد نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام، فكان المصلون يولون وجوههم شطرها إلى أن أمرهم الله تعالى أن يولوا وجوههم شطر الكعبة، وسيأتي وصف ذلك في مكانه.

وقد أردت أن أقيس هذا المسجد، ولكني آثرت أن أتقن معرفة هيأته ووضعه أولاً ثم أقيسه، فلبثت فيه زمنا أمعن النظر، فرأيت عند الجانب الشمالي بجوار قبة يعقوب عليه السلام، طاقاً مكتوباً على حجر منه أن طول هذا المسجد أربع وخمسون وسبعمائة ذراع، وعرضه خمس وخمسون وأربعمائة ذراع، وذلك بذراع الملك المسمى في خراسان كزشايكان، وهو أقل قليلاً من ذراع ونصف، وأرض المسجد مغطاة بحجارة موثوقة إلى بعضها البعض بالرصاص، والمسجد شرقي المدينة والسوق، فإذا دخله السائر من السوق فإنه يتجه شرقاً فيرى رواقاً عظيماً جميلاً ارتفاعه ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون، وللرواق جناحان وواجهتاهما وإيوانه منقوشة كلها بالفسيفساء المثبتة بالجص على الصورة التي يريدونها، وهي من الدقة بحيث تبهر النظر. ويرى على هذا الرواق كتابة منقوشة بالمينا وقد كتب هناك لقب سلطان مصر، فحين تقع الشمس على هذه النقوش يكون لها من الشعاع ما يحير الألباب، وفوق الرواق قبة كبيرة من الحجر المصقول وله بابان مزخرفان، وواجهتاهما من النحاس الدمشقي الذي يلمع، حتى لتظن أنهما طليا بالذهب، وقد طعما بالذهب وحليا بالنقوش الكثيرة.

وطول كل منهما خمس عشرة ذراعاً وعرضه ثمان، ويسميان باب داود عليه السلام، وحين يجتاز السائر هذا الباب يجد على اليمين رواقين كبيرين في كل منهما تسعة وعشرون عموداً من الرخام، تيجانها وقواعدها مزينة بالرخام الملون، ووصلاتها مثبتة بالرصاص.

وعلى تيجان الأعمدة طيقان حجرية، وهي مقامة فوق بعضها بغير ملاط وجص، لا يزيد عدد حجارة الطاق منها على أربع أو خمس قطع، وهذان الرواقان ممتدان إلى المقصورة، ثم يجد على اليسار، وهو ناحية الشمال، رواقاً طويلاً به أربعة وستون طاقاً كلها على تيجان أعمدة من رخام، وعلى هذا الحائط نفسه باب آخر اسمه (باب السقر) وطول المسجد من الشمال إلى الجنوب، وهو ساحة مربعة إذا اقتطعت المقصورة منه. والقبلة في الجنوب وعلى الجانب الشمالي بابان آخران متجاوران عرض كل منهما سبع أذرع، وارتفاعه اثنتا عشر ذراعاً، ويسميان باب الأسباط، فإذا اجتازه السائر وذهب مع عرض المسجد الذي هو جهة المشرق، يجد رواقاً آخر عظيماً كبيراً به ثلاثة أبواب متجاورة، في حجم باب الأسباط، وكلها مزينة بزخارف من الحديد والنحاس، قلّ ما هو أجمل منها، تسمى باب الأبواب لأن للمواضع الأخرى بابين وله ثلاثة.

وبين هذين الرواقين، الواقعين على الجانب الشمالي في الرواق ذي الطيقان المحملة على أعمدة الرخام، قبة رفعت على دعائم عالية، وزينت بالقناديل والمسارج، تسمى قبة يعقوب عليه السلام، لأنه كان يصلي هناك، وفي عرض المسجد رواق في حائطه باب خارجه صومعتان للصوفية، وهناك مصليات ومحاريب جميلة يقيم بها جماعة منهم، ويصلون ولا يذهبون للجامع إلا يوم الجمعة، لأنهم لا يسمعون التكبير حيث يقيمون.

وعند الركن الشمالي للمسجد رواق جميل وقبة جميلة لطيفة مكتوب عليها هذا محراب زكريا النبي عليه السلام، ويقال إنه كان يصلي هناك دائماً. وعند الحائط الشرقي وسط الجامع، رواق عظيم الزخرف من الحجر المصقول، حتى تظن أنه نحت من قطعة واحدة، ارتفاعه خمسون ذراعاً وعرضه ثلاثون، عليه نقوش ونقر، وله بابان جميلان لا يفصلهما أكثر من قدم واحدة، وعليهما زخارف كثيرة من الحديد والنحاس الدمشقي، وقد دق عليهما الحلق والمسامير، ويقال إن سليمان بن داود عليه السلام بنى هذا الرواق لأبيه[282].

وحين يدخل السائر هذا الرواق متجهاً ناحية الشرق، فالأيمن من هذين البابين هو باب الرحمة، والأيسر باب التوبة. ويقال: إن هذا الباب هو الذي قبل الله تعالى عنده توبة داود عليه السلام، وعلى هذا الرواق مسجد جميل كان في وقت ما دهليزاً، فصيروه جامعاً وزينوه بأنواع السجاد، وله خدم مخصصون، ويذهب إليه كثير من الناس ويصلون فيه

---

[282] - باني المسجد الأقصى كما هو معروف عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بن عبد الملك ولا علاقة للنبي سليمان به

ويدعون الله تبارك وتعالى، فإنه في هذا المكان قبل توبة داود - وكل إنسان هناك يأمل في التوبة والرجوع عن المعاصي.

ويقال إن داود عليه السلام لم يكد يطأ عتبة هذا المسجد حتى بشره الوحي بأن الله سبحانه تعالى قد قبل توبته، فاتخذ هذا المكان مقاماً وانصرف إلى العبادة، وقد صليت أنا ناصر في هذا المقام، ودعوت الله تعالى أن يوفقني لطاعته وإن يغفر ذنبي. الله سبحانه وتعالى يهدي عباده جميعاً لما يرضاه، ويغفر لهم ذنوبهم بحق محمد وآله الطاهرين.

وحين يمضي السائر بحذاء الجدار الشرقي، إلى إن يبلغ الزاوية الجنوبية عند القبلة التي تقع على الضلع الجنوبي، يجد أمام الحائط الشمالي مسجداً بهيئة السرداب، ينزل إليه بدرجات كثيرة، مساحته عشرون ذراعاً في خمس عشرة، وسقفه من الحجر مرفوع على أعمدة الرخام، وبهذا السرداب مهد عيسى عليه السلام، وهو من الحجر، حجمه كبير بحيث يصلي عليه الناس، وقد صليت هناك. وقد أحكم وضعه في الأرض حتى لا يتحرك، وهو المهد الذي أمضى فيه عيسى طفولته وكلم الناس منه، وهو في المسجد مكان المحراب، وفي الجانب الشرقي من هذا المسجد محراب مريم عليها السلام، وبه محراب آخر لزكريا عليه السلام، وعلى هذين المحرابين آيات القرآن التي نزلت في حق زكريا ومريم.

ويقال إن عيسى عليه السلام ولد بهذا المسجد، وعلى حجر من عَمَدِه نَقشُ أصبعين كأن شخصاً أمسكه ويقال إن مريم امسكته بأصبعيها وهي تلد.

ويعرف هذا المسجد بمهد عيسى عليه السلام، وبه قناديل كثيرة من النحاس والفضة توقد كل مساء.

المسجد الأقصى:

حين يخرج السائر من هذا المسجد، متبعاً الحائط الشرقي، يجد عندما يبلغ زاوية المسجد الكبير مسجداً آخر عظيماً جداً أكبر مرتين من مسجد مهد عيسى يسمى المسجد الأقصى، وهو الذي أسرى الله عز وجل بالمصطفى صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج من مكة إليه، ومنه صعد إلى السماء كما جاء في القرآن: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾[283]، وقد بنوا به أبنية غاية في الزخرف، وفرش بالسجاد الفاخر ويقوم عليه خدم مخصصون يعملون به دواماً.

---

[283] - سورة الإسراء، الآية رقم 1.

وحين يعود السائر إلى الحائط الجنوبي على مائتي ذراع من تلك الزاوية، لا يجد سقفاً وهناك ساحة المسجد، وأما الجزء المسقوف من المسجد الكبير والذي به المقصورة فيقع عند الحائطين الجنوبي والغربي، وطول هذا الجزء عشرون وأربعمائة ذراع، وعرضه خمسون ومائة ذراع، وبه ثمانون ومائتا عمود من الرخام، على تيجانها طيقان من الحجارة، وقد نقشت تيجان الأعمدة وهياكلها وثبتت الوصلات فيها بالرصاص في منتهى الإحكام، وبين كل عمودين ستة أذرع مغطاة بالرخام الملون الملبس بشقاق الرصاص، والمقصورة في وسط الحائط الجنوبي، وهي كبيرة جداً تتسع لستة عشر عموداً، وعليها قبة عظيمة جداً منقوشة بالميناء على نسق ما وصفت، وهي مفروشة بالحصير المغربي، وبها قناديل ومسارج معلقة بالسلاسل، ومتباعد بعضها عن بعض، وبها محراب كبير منقوش بالميناء، وعلى جانبيه عمودان من الرخام لونهما كالعقيق الأحمر، وإزار المقصورة كله من الرخام الملون، وعلى يمينه محراب معاوية، وعلى يساره محراب عمر رضي الله عنه، وسقف هذا المسجد مغطى بالخشب المنقوش المحلى بالزخارف، وعلى باب المقصورة وحائطها المطلان على الساحة خمسة عشر رواقاً، عليها أبواب مزخرفة، ارتفاع كل منها عشر أذرع وعرضه ستٌ عشرةً. من هذه الأبواب تفتح على الجدار الذي طوله عشرون وأربعمائة ذراع، وخمسة منها على الجدار الذي طوله خمسون ومائة ذراع، وقد زين باب منها غاية الزينة، وهو من الحسن بحيث تظن أنه من ذهب، وقد نقش بالفضة وكتب عليه اسم الخليفة المأمون، ويقال إنه هو الذي أرسله من بغداد.

وحين تفتح الأبواب كلها ينير المسجد حتى لتظن أنه ساحة مكشوفة، أما حين تعصف الريح وتمطر السماء وتغلق الأبواب، فإن النور ينبعث للمسجد من الكوات.

وعلى الجوانب الأربعة من الحرم المسقوف صناديق من مدن الشام والعراق، يجلس بجانبها المجاورون كما هو الحال في المسجد الحرام بمكة شرفها الله تعالى.

وخارج هذا الحرم عند الحائط الكبير الذي مر ذكره، رواق به اثنان وأربعون طاقاً، وكل أعمدته من الرخام الملون، وهذا الرواق متصل بالرواق المغربي.

وتحت الأرض في الحرم المسقوف حوض جعل بحيث يكون في مستوى الأرض حين يغطى. وقد بني لتجمع فيه مياه المطر، وعلى الحائط الجنوبي باب يؤدي إلى ميضأة يذهب إليها من يحتاج إلى الوضوء فيجدده، وذلك لأنه لا يلحق الصلاة إذا هو خرج من المسجد ليتوضأ، إذ أن كبر المسجد يفوت عليه الصلاة إذا اجتازه. وكل الأسقف ملبسة بالرصاص.

وقد حفرت في أرض المسجد أحواض وصهاريج كثيرة، فإن المسجد مشيد كله على صخرة، فمهما يهطل من المطر لا يذهب خارج الأحواض ولا يضيع سدى بل ينصرف إلى الأحواض وينتفع به الناس.

وهناك ميازيب من الرصاص ينزل منها الماء إلى أحواض حجرية تحتها، وقد ثقبت هذه الأحواض ليخرج منها الماء ويصب في الصهاريج بواسطة قنوات بينها، غير ملوث أو عفن. وقد رأيت على ثلاثة فراسخ من المدينة صهريجاً كبيراً تنحدر إليه المياه من الجبل، وتتجمع فيه وقد أوصلوه بقناة إلى مسجد المدينة حيث يوجد أكبر مقدار من مياه المدينة، وفي المنازل كلها أحواض لجمع ماء المطر إذ لا يوجد غيره هناك، ويجمع كل إنسان ما على سطح بيته من مياه فإن ماء المطر هو الذي يستعمل في الحمامات وغيرها.

والأحواض التي بالمسجد لا تحتاج إلى عمارة أبداً، لأنها من الحجر الصلب، فإذا حدث بها شق أو ثقب أحكم إصلاحه حتى لا تتخرب. ويقال إن سليمان عليه السلام هو الذي عمل هذه الأحواض. وقد جعل القسم الأعلى منها على هيئة التنور، وعلى رأس كل حوض غطاء من حجر حتى لا يسقط فيه شيء، وماء هذه المدينة أعذب وأنقى من أي ماء آخر، وتستمر الميازيب في قطر المياه يومين أو ثلاثة، ولو كان المطر قليلاً إلى إن يصفو الجو وتزول آثاره السيئة وحينئذ يبدأ المطر!

قلت إن مدينة بيت المقدس تقع على قمة جبل وإن أرضها غير مستوية. أما المسجد فأرضه مستوية فخارج المسجد حيثما تكون الأرض منخفضة يرتفع حائطه، إذ يكون أساسه في أرض واطئة، وحيثما تكون الأرض مرتفعة يقصر الجدار.

وفي الجهات الواطئة من أحياء المدينة فتحوا في المسجد أبواباً كأنها نقب تؤدي لساحته، ومن هذه الأبواب باب يسمى باب النبي عليه الصلاة والسلام، وهو بجانب القبلة، أي في الجنوب، وقد عمل بحيث يكون عرضه عشر أذرع وأما ارتفاعه فيتفاوت حسب المكان، فهو في مكان خمسة أذرع أي علو سقف هذا الممر، وفي مكان آخر عشرون. والجزء المسقوف من المسجد الأقصى مشيد فوق هذا الممر، وهو محكم بحيث يحتمل أن يقام فوقه بناء بهذه العظمة من غير أن يؤثر فيه قط، وقد استخدمت في بنائه حجارة لا يصدق العقل كيف استطاعت قوة البشر نقلها واستخدامها، ويقال إن سليمان بن داود عليه السلام هو الذي بناه، وقد دخل منه نبينا عليه الصلوات والسلام إلى المسجد ليلة المعراج. وهذا الباب على جانب طريق مكة.

وعلى الحائط بقرب هذا الباب نقش دقيق لمجن كبير، يقال إن حمزة بن عبد

المطلب عم النبي عليه السلام كان جالساً هناك وعلى كتفه المجن، وظهره مسند إلى الحائط وإن هذا نقش مجنه[284].

وعند بوابة المسجد حيث هذا الممر الذي عليه باب ذو مصراعين، يبلغ ارتفاع الجدار من الخارج ما يقرب من خمسين ذراعاً، وقد قصد بهذا الباب أن يدخل منه سكان المحلة المجاورة لهذا الضلع من المسجد، فلا يلجأون إلى الذهاب لمحلة أخرى حين يريدون دخوله. وعلى الحائط الذي يقع يمين الباب؛ حجر ارتفاعه خمس عشرة ذراعاً، وعرضه أربع أذرع، فليس في المسجد حجر أكبر منه، وفي الحائط على ارتفاع ثلاثين أو أربعين ذراعاً من الأرض، كثير من الحجارة التي يبلغ حجمها أربع أذرع أو خمس.

وفي عرض المسجد باب شرقي يسمى باب العين، إذا خرجوا منه نزلوا منحدراً فيه عين سلوان. وهناك أيضاً باب تحت الأرض يسمى الحطة، يقال إنه هو الباب الذي أمر الله عز وجل بني إسرائيل أن يدخلوا منه إلى المسجد قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[285]، وهناك باب آخر يسمونه باب السكينة، في دهليزه مسجد به محاريب كثيرة، باب أولها مغلق حتى لا يلجه أحد، ويقال إن هناك تابوت السكينة الذي ذكره الله تبارك وتعالى في القرآن، والذي حمله الملائكة وأبواب بيت المقدس ما تحت الأرض وما فوقها تسعة أبواب كما ذكرت.

وصف الدكة التي بوسط ساحة المسجد والصخرة التي كانت قبلة الإسلام

أقيمت هذه الدكة في وسط المساحة، لأنه لم يتيسر نقل الصخرة إلى الجزء المسقوف من المسجد لعلوها، وهي تظل مساحة من الأرض مقدارها ثلاثون وثلاثمائة ذراع في ثلاثمائة، وارتفاعها اثني عشر ذراعاً، وصحنها مستو ومزخرف بالرخام الملبس بوصلات الرصاص، وعلى جوانبها الأربعة ألواح الرخام كما يعمل في المقابر، وهي مبينة بحيث لا يستطيع أحد الصعود عليها من غير المراقي المخصصة لهذا الأمر. ويشرف من يصعد عليها على سقف الجامع، وقد حفر في أرضها في الوسط حوض يصب فيه مياه

---

[284] - هذا من الخرافات لأن حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه استشهد في معركة أحد ولم يكن بيت المقدس قد فتح بعد.

[285] - سورة البقرة، الآية 58.

المطر بواسطة قنوات أعدت لذلك، وماء هذا الحوض أنقى وأعذب من كل ماء في الجامع، وعلى هذه الدكة أربع قباب أكبرها قبة الصخرة التي كانت القبلة.

وصف قبة الصخرة

بني المسجد بحيث تكون الدكة في وسط الساحة، وقبة الصخرة في وسط الدكة، والصخرة وسط القبة.

وقبة الصخرة بيت مثمن منظم، كل ضلع من أضلاعه الثمانية ثلاثة وثلاثون ذراعاً، وله أربعة أبواب على الجهات الأربع الأصلية: باب شرقي وآخر غربي وثالث شمالي ورابع جنوبي، وبين كل بابين ضلع، وجميع الحوائط من الحجر المنحوت وارتفاعها عشرون ذراعاً، ومحيط الصخرة مائة ذراع، وهي غير منتظمة الشكل لا هي مدورة ولا مربعة، ولكنها حجر غير منتظم كحجارة الجبل، وقد بنوا على جوانب الصخرة الأربعة أربعة دعائم مربعة بارتفاع حائط البيت المذكور، وبين كل دعامتين على الجوانب الأربعة عمودان أسطوانيان من الرخام، بالارتفاع نفسه، وعلى قمة تلك الدعائم وهذه الأعمدة الاثني عشر، بنوا القبة التي تحتها الصخرة، والتي يبلغ محيطها مائة وعشرين ذراعاً.

وبين حائط هذا البناء والدعائم والأعمدة (أسمي المربعة المبنية دعامة، والمنحوتة المستديرة التي من حجر واحد اسطوانة عموداً) ثماني دعائم أخرى مبنية من الحجارة المنحوتة. وبين كل اثنتين منهما ثلاثة أعمدة من الرخام الملون على أبعاد متساوية، بحيث يكون في الصف الأول عمودان بين كل دعامتين، ويكون هنا ثلاثة أعمدة بين كل دعامتين، وعلى تاج كل دعامة أربعة عقود، على كل عقد طاق، وعلى كل عمود عقدان فوق كل منها طاق، وهكذا يكون على العمود متكأ لطاقين، وعلى الدعامة متكأ لأربعة، فكانت هذه القبة العظيمة في ذلك الوقت مرتكزة على هذه الدعامات الاثنتي عشرة المحيطة بالصخرة، فتراها على بعد فرسخ كأنها قمة جبل، لأنها من أساسها إلى قمتها ثلاثون ذراعاً، وهي تستند إلى أعمدة ودعامات ارتفاعها عشرون ذراعاً، وقبة الصخرة مشيدة على بيت ارتفاعه اثنتا عشرة ذراعاً، وإذا فمن ساحة المسجد إلى رأس القبة اثنان وستون ذراعاً.

وسقوف هذه الدكة وقبابها مكسوة بالنجارة، وكذلك الدعائم والعمد والحوائط وذلك بدقة قل نظيرها، والصخرة أعلى من الأرض بمقدار قامة رجل وقد أحيطت بسياج من الرخام حتى لا تصل يد إليها.

والصخرة حجر أزرق لونه، لم يطأها أحد برجله أبداً، وفي ناحيتها المواجهة للقبلة انخفاض كأن إنساناً سار عليها، فبدت آثار قدمه فيها كما تبدو على الطين الطري، فإن آثار أصابع قدميه باقية عليها، وقد بقيت عليها آثار سبع أقدام، وسمعت أن إبراهيم عليه السلام كان هناك، وكان اسماعيل طفلاً فمشى عليه، وهذه هي آثار أقدامه.

ويقيم في بيت الصخرة هذا جماعة من المجاورين والعابدين، وقد زينت أرضه بالسجاد الجميل من الحرير وغيره، وفي وسطه قنديل من الفضة معلق بسلسلة فضية فوق الصخرة، وهناك قناديل كثيرة من فضة كتب عليها وزنها، أمر بصنعها سلطان مصر، وقد قدرت ما هناك من الفضة بألف مَنْ.

ورأيت هناك أيضاً شمعة كبيرة جداً طولها سبعة أذرع، وقطرها ثلاثة أشبار، لونها كالكافور الزياجي، وشمعها مخلوط بالعنبر، ويقال إن سلطان مصر يرسل هناك كل سنة كثيراً من الشمع منه هذه الشمعة الكبيرة، ويكتب عليها اسمه بالذهب.

وهذا المسجد هو ثالث بيوت الله سبحانه وتعالى، والمعروف عند علماء الدين أن كل صلاة في بيت المقدس تساوي خمسة وعشرين ألف صلاة، وكل صلاة في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام تعد بخمسين ألف صلاة، وإن صلاة مكة المعظمة شرفها الله تعالى تساوي مائة ألف صلاة. وفق الله عز وجل عباده جميعاً لهذا الثواب.

وقد قلت إن أسقف وظهور القباب ملبسة بالرصاص، وعلى جوانب الدكة الأربعة، أبواب كبيرة مصاريعها من خشب الساج، وهي مقفلة دائما. وبعد قبة الصخرة قبة تسمى قبة السلسلة، وهي السلسلة التي علقها داود عليه السلام والتي لا تصل إليها إلا يد صاحب الحق، أما يد الظالم والغاصب فلا تبلغها، وهذا المعنى مشهور عند العلماء، وهذه القبة محمولة على رأس ثمانية أعمدة من الرخام وست دعائم من الحجر، وهي مفتوحة من جميع الجوانب عدا جانب القبلة، فهو مسدود حتى نهايته وقد نصب عليه محراب جميل.

وعلى هذه الدكة أيضاً قبة أخرى مقامة على أربعة أعمدة من الرخام، وهي مغلقة من ناحية القبلة أيضاً حيث بني محراب جميل، وتسمى هذه القبة قبة جبريل عليه السلام، وليس فيها فرش بل إن أرضها من حجر مستو. ويقال إن هناك أعد البراق ليركبه النبي عليه السلام ليلة المعراج.

وبعد قبة جبريل قبة أخرى يقال لها قبة الرسول عليه الصلاة والسلام وبينهما عشرون ذراعاً، وهي مقامة على أربع دعائم من الرخام أيضاً، ويقال إن الرسول عليه

الصلاة والسلام، صلى ليلة المعراج في قبة الصخرة أولاً ثم وضع يده على الصخرة، فلما خرج وقفت لجلاله، فوضع الرسول عليه الصلاة السلام يده عليها لتعود إلى مكانها وتستقر، وهي بعد نصف معلقة، وقد ذهب الرسول عليه السلام من هناك إلى القبة التي تنتسب إليه، وركب البراق وهذا سبب تعظيمها.

وتحت الصخرة غار كبير يضاء دائماً بالشمع، ويقال إنه حين قامت الصخرة خلا ما تحتها، فلما استقرت بقي هذا الجزء كما كان.

وصف المراقي المؤدية إلى الدكة التي بساحة الجامع

يُسار إلى هذه الدكة من ستة مواضع، لكل منها اسم، فبجانب القبلة طريقان يصعد فيهما على درجات، فإذا وقفت في وسط ضلع الدكة وجدت أحدهما على اليمين والثاني على اليسار، والذي على اليمين يسمى مقام النبي عليه السلام، والذي على اليسار يسمى مقام الغوري، وسمي الأول مقام النبي لأن النبي عليه الصلاة والسلام صعد على درجاته إلى الدكة ليلة المعراج، ودخل إلى قبة الصخرة، ويقع طريق الحجاز على هذا الجانب، وعرض درجاته اليوم عشرون ذراعاً، وهي من الحجر المنحوت المنتظم، وكل درجة قطعة أو قطعتان من الحجر المربع، وهي معدة بحيث يستطيع الزائر الصعود عليها راكباً. وعلى قمة هذه الدرجات أربعة أعمدة من الرخام الأخضر الذي يشبه الزمرد، لولا أن به نقطاً كثيرة من كل لون، ويبلغ ارتفاع كل عمود منها عشرة أذرع، وقطره بقدر ما يحتضن رجلان، وعلى رأس هذه الأعمدة الأربعة ثلاثة طيقان، أحدها مقابل للباب، والآخران على جانبيه، وسطح الطيقان أفقي، من فوقه شرفات بحيث يبدو مربعاً، وهذه العمد والطيقان منقوشة كلها بالذهب والمينا، ليس أجمل منها، ودرابزين الدكة كله من الرخام الأخضر المنقط، حتى لتقول إن عليه روضة ورد ناضر.

وقد أعد مقام الغوري بحيث تكون ثلاثة سلالم على موضع واحد، أحدها محاذ للدكة، والآخران على جانبيها حتى يستطاع الصعود من ثلاثة أماكن، ومن فوق هذه السلالم الثلاثة أعمدة عليها طريقان وشرفة، والدرجات بالوصف الذي ذكرت من الحجر المنحوت، كل درجة قطعتان أو ثلاث من الحجر المستطيل، وكتب بخط جميل بالذهب على ظاهر الإيوان: (أمر به الأمير ليث الدولة نوشتكين الغوري[286]) ويقال إنه كان تابعاً لسلطان مصر، وهو الذي أنشأ هذه الطرق والمراقي.

---

[286] - الأمير ابو منصور انوشتكين امير الجيوش وحاكم سوريا من قبل الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله

وعلى الجانب الغربي للدكة سلّمان في ناحيتين منها، وهناك طريق عظيم مشابه لما ذكرت، وكذلك في الجانب الشرقي طريق عظيم مماثل عليه أعمدة فوقها طيقان وشرفة يسمى المقام الشرقي، وعلى الجانب الشمالي طريق أكثر علواً وأكبر منها كلها، به أعمدة فوقها طيقان يسمى المقام الشامي، وأظن أنهم صرفوا على هذه الطرق الستة مائة ألف دينار.

وفي الجانب الشمالي لساحة المسجد لا على الدكة، بناء كأنه مسجد صغير يشبه الحظيرة. وهو من الحجر المنحوت يزيد ارتفاع حوائطه على قامة رجل، ويسمى محراب داود، وبالقرب منه حجر غير مستو يبلغ قامة رجل وقمته تتيح وضع حصيرة صلاة صغيرة عليها، ويقال إنه كرسي سليمان عليه السلام، الذي كان يجلس عليه أثناء بناء المسجد[287].

هذا ما رأيت في جامع بيت المقدس، قد صورته وضممته إلى مذكراتي[288]، ومن النوادر التي رأيتها في بيت المقدس شجرة الحور.

الخليل :

بعد الفراغ من زيارة بيت المقدس؛ عزمت على زيارة مشهد إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام، في يوم الأربعاء غرة ذي القعدة سنة 438 [هجرية، 20 نيسان 1047م]، والمسافة بينهما ستة فراسخ عن طريق جنوبي، به قرى كثيرة وزرع وحدائق وشجر بري لا يحصى من عنب وتين وزيتون وسماق.

وعلى فرسخين من بيت المقدس أربع قرى بها عين وحدائق وبساتين كثيرة تسمى الفراديس لجمال موقعها، وعلى فرسخ واحد من بيت المقدس مكان للنصارى يعظمونه كثيراً يقيم بجانبه مجاورون دائماً ويحج إليه كثيرون اسمه بيت لحم، وهناك يقدم النصارى القرابين ويقصده الحجاج من بلاد الروم وقد بلغته مساء اليوم الذي قمت فيه من بيت المقدس.

وصف قبر الخليل صلوات الله عليه :

يسمي أهل الشام وبيت المقدس هذا المشهد (الخليل)، ولا يذكرون اسم القرية التي هو فيها قرية مطلون[289]، وهي موقوفة عليه مع قرى كثيرة، وفي هذه القرية عين ماء

---

[287] - كلام لا أساس له

[288] - يرى دارسو هذه الرحلة بأن هذه الإشارة تفيد بأن النص الحالي ليس كاملاً بل هناك رسومات ناقصة على الأقل

[289] - من المرجع أنها قرية المرطون أو المرطوم، حيث يرد اسمها في نسخ متداولة من (نطية تميم)، وهي الوثيقة التي

تخرج من الصخر يتفجر ماؤها رويداً رويداً، وهو ينقل من مسافة بعيدة بواسطة قناة إلى خارج القرية، حيث بني حوض مغطى يصب فيه الماء، فلا يذهب هباء حتى يفي بحاجة أهل القرية وغيرهم من الزائرين.

والمشهد على حافة القرية من ناحية الجنوب وهي في الجنوب الشرقي، والمشهد يتكون من بناء ذي أربع حوائط من الحجر المصقول، طوله ثمانون ذراعاً، وعرضه أربعون، وارتفاعه عشرون، وثخانة حوائطه ذراعان. وبه مقصورة ومحراب في عرض البناء، وبالمقصورة محاريب جميلة بها قبران رأسهما للقبلة، وكلاهما من الحجر المصقول بارتفاع قامة الرجل. الأيمن قبر اسحق بن إبراهيم، والآخر قبر زوجه عليها السلام، وبينهما عشر أذرع، وأرض هذا المشهد وجدرانه مزينة بالسجاجيد القيمة، والحصر المغربية التي تفوق الديباج حسنا، وقد رأيت هناك حصير صلاة قيل أرسلها أمير الجيوش، وهو تابع لسلطان مصر، وقد اشتريت من مصر بثلاثين ديناراً من الذهب المغربي، ولو كانت من الديباج الرومي لما بلغت هذا الثمن، ولم أر مثلها في مكان قط.

حين يخرج السائر من المقصورة إلى وسط ساحة المشهد يجد مشهدين أمام القبلة، الأيمن به قبر إبراهيم الخليل صلوات الله عليه، وهو مشهد كبير، ومن داخله مشهد آخر لا يستطاع الطواف حوله ولكن له أربع نوافذ يرى منها فيراه الزائرون وهم يطوفون حول المشهد الكبير، وقد كسيت أرضه وجدرانه ببسط من الديباج. والقبر من الحجر ارتفاعه ثلاث أذرع، وعلق به كثير من القناديل والمصابيح الفضية.

والمشهد الثاني الذي على يسار القبلة به قبر سارة زوج إبراهيم عليه السلام وبين القبرين ممر عليه باباهما، وهو كالدهليز، وبه كثير من القناديل والمسارج.

وبعد هذين المشهدين قبران متجاوران، الأيمن قبر النبي يعقوب عليه السلام، والأيسر قبر زوجه، وبعدهما المنازل التي اتخذها إبراهيم للضيافة وبها ستة قبور.

وخارج الجدران الأربعة منحدر به قبر يوسف بن يعقوب عليه السلام، وهو من حجر وعليه قبة جميلة، وعلى جانب الصحراء بين قبر يوسف ومشهد الخليل عليهما السلام مقبرة كبيرة يدفن فيها الموتى من جهات عديدة، وعلى سطح المقصورة التي في المشهد حجرات للضيوف الوافدين، وقد وقف عليها أوقاف كثيرة من القرى ومستغلات بيت المقدس.

يقال إن الرسول صلى الله عليه وسلم كتبها وأقطع فيها تميماً الداري قرية الخليل وما حولها وهذا نصها: (هذا ما أنطى محمد رسول الله لتميم الداري وإخوته حبرون والمرطوم وبيت عينون وبيت إبراهيم وما فيهن نطية بت بذممهم ونفذت وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم فمن آذاهم آذاه الله فمن آذاهم لعنه الله شهد عتيق بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وكتب علي بن أبي طالب وشهد)

وأغلب الزراعة هناك الشعير، والقمح قليل والزيتون كثير، ويعطون الضيوف والمسافرين والزائرين الخبز والزيتون، وهناك طواحين كثيرة تديرها البغال والثيران لطحن الدقيق، وبالمضيفة خادمات يخبزن طول اليوم، ويزن رغيفهم مَنّاً واحداً، ويعطى من يصل هناك رغيفاً مستديراً، وطبقاً من العدس المطبوخ بالزيت، وزبيباً كل يوم، وهذه عادة بقيت من أيام خليل الرحمن عليه السلام حتى الساعة[290]، وفي بعض الأيام يبلغ عدد المسافرين خمسمائة، فتهيأ الضيافة لهم جميعاً.

ويقال إنه لم يكن لهذا المشهد باب، كان دخوله مستحيلاً، بل كان الناس يزورونه من الإيوان في الخارج، فلما جلس المهدي على عرش مصر[291] أمر بفتح باب فيه وزينه وفرشه بالسجاجيد، وأدخل على عمارته إصلاحاً كثيراً. وباب المشهد وسط الحائط الشمالي على ارتفاع أربعة أذرع فوق الأرض، وعلى جانبيه درجات من الحجر فيصعد إليه من جانب، ويكون النزول من الجانب الثاني، ووضع هناك باب صغير من الحديد.

الرجوع إلى بيت المقدس

ثم رجعت إلى بيت المقدس، ومن هناك سرت ماشياً مع جماعة تقصد الحجاز، كان دليلنا رجلاً اسمه أبو بكر الهمداني، وهو رجل جلد يقدر على المشي، وجهه جميل.

غادرت بيت المقدس في منتصف ذي القعدة سنة 438 [هجرية 12حزيران 1047م][292]، وبعد ثلاثة أيام بلغت جهة تسمى أعز القرى، بها ماء جار وأشجار ثم بلغنا منزلاً آخر يسمى وادي القرى، ومن بعده نزلنا مكانا ثالثاً ثم بلغنا مكة بعد عشرة أيام. لم تحضر لمكة قافلة من أي بلد في هذه السنة وشح الطعام، وقد نزلت في سكة العطارين أمام باب النبي عليه السلام، وفي يوم الاثنين طلعت عرفات وكان الناس مملوئين رعباً من العرب[293]، ولما عدت من عرفات لبثت بمكة يومين ثم رجعت إلى بيت المقدس عن طريق الشام.

---

[290] - في الحقيقة سماط الخليل هذا من وقف تميم الداري الذي حرص ابناؤه واحفاده ومن انتسب إليه على دوامه

[291] - عبيد الله المهدي مؤسس الخلافة الفاطمية في تونس والمغرب العربي، ولم يجلس على عرش مصر كما وهم ناصر خسرو بل الذي اتى إلى مصر هو المعز لدين الله الذي دخل القاهرة في 7 رمضان 362هـ[11 يونيو 972م]، واقام في القصر الذي بناه جوهر الصقلي

[292] - يرد خطأ في ترجمة الخشاب أن السنة هي 437 هجرية، والصحيح 438 هجرية وهو ما اثبتناه بالرجوع إلى النسخة الفارسية

[293] - المقصود البدو، ومعروف أن القبائل البدوية كانت خارجة على السلطة في ذلك الوقت

وبلغنا المقدس في الخامس من المحرم سنة 439 [هجرية، 2 تموز 1047م]، ولا أذكر هنا وصف مكة والحج، سأذكر ذلك عند الكلام على الحجة الأخيرة.

كنيسة بيعة القيامة :

وللنصارى في بيت المقدس كنيسة يسمونها بيعة القمامة، لها عندهم من مكانة عظيمة، ويحج إليها كل سنة كثير من بلاد الروم، ويزورها ملك الروم متخفياً حتى لا يعرفه الناس. وقد زارها أيام عزيز مصر الحاكم بأمر الله، فبلغ ذلك الحاكم فأرسل إليه أحد حراسه بعد أن عرفه أن رجلاً بهذه الحلية والصورة يجلس في كنيسة بيت المقدس، وقال له: اذهب عنده وقل له إن الحاكم أرسلني إليك، ويقول: لا تحسبني أجهل أمرك، ولكن كن آمنا فلن أقصدك بسوء.

وقد أمر الحاكم هذا بالإغارة على الكنيسة فهدمها وخربها، وظلت خربة مدة من الزمان، وبعد ذلك بعث القيصر إليه رسلاً وقدم كثيراً من الهدايا والخدمات، وطلب الصلح والشفاعة ليؤذن له بإصلاح الكنيسة، فقبل الحاكم وأعيد تعميرها[294].

وهذه الكنيسة فسيحة تسع ثمانية آلاف رجل، وهي عظيمة الزخرف من الرخام الملون والنقوش والصور، وهي مزدانة من الداخل بالديباج الرومي والصور، وزينت بطلاء من الذهب، وفي أماكن كثيرة منها صورة عيسى عليه السلام راكباً حماراً، وصور الأنبياء الآخرين مثل إبراهيم وإسحق ويعقوب وأبنائهم عليهم السلام، وهذه الصور مطلية بزيت السندروس[295]، وقد غطي سطح كل صورة بلوح من الزجاج الشفاف على قدها، بحيث لا يحجب منها شيء، وذلك حتى لا يصل الغبار إليها.

وينظف الخدم هذا الزجاج كل يوم، وهناك عدا ذلك عدة مواضع أخرى كلها مزينة، ولو وصفتها لطالت كتابتي، وفي هذه الكنيسة لوحة مقسمة إلى قسمين وعملا لوصف الجنة والنار، فنصف يصف الجنة وأهلها، ونصف يصف النار وأهلها ومن يبقى فيها. وليس لهذه الكنيسة نظير في أي جهة من العالم، ويقيم بها كثير من القسس والرهبان، يقرؤون الإنجيل، ويصلون ويشتغلون بالعبادة ليل نهار.

---

[294] - هدمت كنيسة القيامة في عهد الحاكم بأمر الله، سنة 400 هجرية، 1009م، وأعيد بناؤها في عهد المستنصر بالله بعد أن عقد الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الخامس صلحاً مع والي القدس لصالح المستنصر في سنة 429 هجرية، 1037م

[295] - زيت يستخرج من صمغ بعض الأشجار يسمى سنتالوزي

إلى مصر :

ثم عزمت على أن أغادر بيت المقدس إلى مصر بطريق البحر ثم أغادرها إلى مكة، ولكن كانت الريح معاكسة وتعذر السفر بالبحر، فسرنا عن طريق البر، ومررنا بالرملة ثم بلغنا مدينة عسقلان بها سوق وجامع جميل. رأيت بها طاقاً قديماً قيل إنه كان مسجداً، وهو طاق من الحجر الكبير، ولو أرادوا هدمه للزمهم إنفاق مال كثير، وخرجت من هناك فوجدت في الطريق قرى كثيرة ومدنا يطول وصفها، فحذفته اختصارا وبلغنا مكاناً يسمى طينة، وهو مرفأ للسفن يذهب منه إلى تنيس، وقد ركبت السفينة إليها .

رحلة ابن العربي إلى القدس

أواخر أيام الفاطميين وقبل دخول الصليبيين

في سنة 486هـ، 1093م زار فلسطين رحالة فقيه من الأندلس، هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري[296]، ومكث فيها نحو ثلاث سنوات كانت سنوات تحصيل وعلم واستماع عندما كانت القدس تعيش واحدة من أزهى مراحلها الفكرية وأغناها.

ولد ابن العربي في اشبيلية سنة 468هـ، 1076م، وقد غادرها إلى المشرق صُحبَة أبيه الذي كان يشغل منصباً مرموقاً في دولة بني العباد التي أزالها يوسف بن تاشفين صاحب المغرب.

بدأ أبو بكر وأبوه رحلتهما في مستهل ربيع الأول سنة 485هـ، 1092م ولم يكن عمره يتجاوز آنذاك سبعة عشر عاماً. فسار من اشبيلية إلى ملقة فغرناطة فالمرية ثم سافر بحراً إلى بجاية على ساح الجزائر، ومنها إلى بونه فتونس فسوسة فالمهدية، وواصل الرحلة بحراً فانكسرت السفينة على شاطئ برقة فنزل في بيوت بني كعب بن سليم، ثم اتجه إلى مصر فالقدس التي وصلها في سنة 486هـ، 1093م. وبعد أن أقام في القدس حوالي 3 سنوات سافر إلى دمشق وتتلمذ على أبي بكر الطرطوشي ثم إلى بغداد فوصلها في رمضان 489هـ، 1096م واستمع فيها للإمام الغزالي، ثم أدى فريضة الحج في السنة نفسها وعاد إلى بغداد. ثم سافر إلى مصر. ومنها عاد إلى وطنه بعد غياب استمر عشرة

---

(296) - انظر سيرته في المقري، (نفح الطيب) تحقيق إحسان عباس، ج 3 ص 25 . 43 بيروت 1968.

وابن خلكان، (وفيات الأعيان)، تحقيق إحسان عباس، ج 4، ص 296 . 297 بيروت دت

وكراتشكوفسكي، (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) ص 331

وابن العربي كتاب (العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة)، تحقيق محب الدين الخطيب . المقدمة . بيروت 1986.

وإحسان عباس، رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل، مجلة الأبحاث مجلة 21 (1968) ص 59، وما بعدها.

أعوام. وسرعان ما ذاع صيته كقاضٍ وفقيه من أكبر فقهاء المالكية في الأندلس، وتوفي أثناء رحلة إلى مدينة فاس سنة 543هـ، 1148م. تاركاً الكثير من الكتب منها (أحكام القرآن) (والعواصم من القواصم) (وقانون التأويل).

الرحلة :

وله رحلته سمّاها : (ترتيب الرحلة للترغيب في الملة). وهو كتاب مفقود عثر العلاّمة الدكتور إحسان عباس على أجزاء منه منشورة في كتاب (قانون التأويل) الذي كان مفقوداً هو الآخر. فنشر الجزء الخاص بالرحلة في مجلة الأبحاث البيروتية (المجلد 21 لسنة 1968) تحت عنوان: (رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل). وهذا هو المصدر الأول في الحديث عن رحلة ابن العربي.

ويرى الدكتور كامل جميل العسلي أن قانون التأويل لا يضم إلا جزءاً من الرحلة ربما كان يسيراً. وهذا ظاهر من النصوص المتعلقة بالرحلة في كتابي ابن العربي (أحكام القرآن) و(العواصم من القواصم) ومن نقولات متعلقة بها في نفح الطيب وغيره من الكتب.

وقد نقل عنه ابن خلدون والمقرّي، وينقل هذا الأخير وصفاً شيقاً لغرق السفينة التي كان يستقلها عند سواحل إفريقيا، كما يشير إلى ولعه بصنوف الغرائب ويورد أخباراً عديدة عن مقابلاته مع بعض العلماء والأدباء[297].

ويرى المستشرق الروسي اغناتي كراتشكوفسكي أن ابن العربي هو (أول من وضع الأساس لهذا الفن - أي الرحلات - حسب علمنا)[298] ولا نعرف ما الذي قصده كراتشكوفسكي بقوله هذا، إذ أن الكثير من الرحالة العرب سبقوا ابن العربي إلى الخوض في هذا الغمار، مثل ابن فضلان وسلام الترجمان والتاجر إبراهيم بن يعقوب الموسوي. ولكن قصده قد يكون الرحالة العرب الأندلسيين فربما كان قوله صحيحاً، أو الرحالة الذين كانوا يزورون المشاعر المقدسة، ويصفون المدن والطرق المؤدية إليها .

نزيل القدس

وصل أبو بكر إلى القدس في سنة 486 هـ، 1093م. وإذ كان هدفه الأول من رحلته هو تحصيل علوم الشرق فقد وجد الكثير مما كان يبتغيه في بيت المقدس. ولذلك فإنه

---

(297) - المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين للمنجد 24، ودمشق الشام للايبش والشهابي ج1 247-248.

(298) - كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 331

أجل سفره إلى مكة وقال لأبيه: إن كانت لك نية في الحج فامضِ لعزمك فإني لست بـرائم عن هذه البلدة حتى أعلم علم من فيها[299]. وظل ابن العربي في القدس أزيد من ثلاثة أعوام.

وجد ابن العربي في القدس حياة علمية خصبة زاخرة أسهم فيها علماء كثيرون بعضهم من أهل القدس وفلسطين، وبعضهم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي: من علماء القدس كان هناك الإمام الحافظ أبو الفضل علي بن محمد بن طاهر المقدسي المعروف بابن القيسراني والمتوفى سنة 507هـ، 1113[300]م ومنهم عطاء المقدسي فقيه الشافعية. ومن علماء المسلمين الذين نزلوا القدس في هذه الفترة الإمام أبو حامد الغزالي الذي اجتمع به ابن العربي في بغداد، والذي عاش في القدس مجتهداً في العبادة والتأليف[301]، ومنهم أبو الغنائم محمد بن علي بن ميمون النّرسي الحافظ الكوفي المتوفى سنة 510هـ، 1116م[302]، والإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى المقدسي العثماني المعروف بالديباجي، أصله من مكة وأقام ببيت المقدس وكتب الأحاديث بها، وقد توفي سنة 529هـ، 1134- 1135م[303]. وكان على رأس العلماء الذين لزمهم ابن العربي وتمتع بلقائهم في المسجد الأقصى الإمام محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الطرطوشي الفهري الأندلسي المالكي صاحب (سراج الملوك) وتلميذ أبي محمد علي بن حزم. وكان قد رحل إلى بلاد المشرق سنة 476هـ، 1083م وقدم بيت المقدس وتفقه على يد الإمام أبي بكر الشاشي المستظهري[304]، وسكن القدس ودرس بها. وقد ولد سنة 451هـ، 1059م وتوفي بالإسكندرية سنة 520هـ، 1126م[305]. وقد استفاد ابن العربي كثيراً من الطرطرشي قبل سفر الطرطوشي إلى الإسكندرية وقال ابن العربي فيما نقله صاحب (نفح الطيب): (تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبي بكر الفهري الطرطوشي في حديث ابن ثعلبة)[306]. وقال

---

[299] - الأبحاث، مجلة 21، ص 80.

[300] - أحمد بن محمد بن إبراهيم بن هلال المقدسي (مثير الغرام بفضائل القدس والشام)، تحقيق احمد الخطيمي، رسالة جامعية غير منشورة، جامعة القديس يوسف ببيروت 1985، ص 425.

[301] - المصدر نفسه، ص 427.

[302] - المصدر نفسه ص 428.

[303] - المصدر نفسه، ص 429.

[304] - محمد بن أحمد بن عمر الشاشي التركي الشافعي مدرس النظامية المتوفى ببغداد 507هـ 1113 . 1114 [عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين ج 253/8].

[305] - المقدسي (مثير الغرام)، ص 427، والمقري (نفح الطيب)، ج 2، ص 85.

[306] - نفح الطيب، ج 2، ص 37 . 38.

ابـن العربـي في قـانون التأويـل: (ومـشيت إلى شـيخنا رحمـة الله عليـه، وكـان ملتزماً مـن المسجد الأقصى ـ طهـره الله ـ بموضـع يقـال لـه الغوير بـين بـاب أسـباط ومحـراب زكريا عليهم السلام فلم نلقه به واقتصصنا أثره إلى موضـع منـه يقـال لـه السكينة فألفيناه بهـا فشاهدت هَدْيه وسمعت كلامـه فـامتلأت عيني وأذنـي منـه، واعلمـه أبـي بنيتي فأنـاب، وطالعه بعزيمتي فأجاب، وانفتح لي به إلى العلم كل باب)[307].

وممـن اجتمـع بهـم ابـن العربـي في المسجد الأقـصى جماعـة مـن علمـاء خراسـان كـالزوزني والـصاغاني[308] والزنجاني[309] والقاضـي الريحـاني[310]، وفي بيت المقدس أيضاً لقى ابن الكازروني[311] وقال عنه: كان ابن الكازروني يأتي إلى المسجد الأقصى، ثم تمتعنا به ثلاث سنوات، ولقد كان يقرأ في مهد عيسى عليه السلام فيسمع مـن الطـور فـلا يقـدر أحد أن يَصْنع شيئاً دون قراءته إلا الإصغاء إليه[312].

ويحـدثنا ابـن العربـي أيـضاً عـن المنـاظرات الـتي كانـت تجـري بـين الفـرق المختلفـة كالكراميّة والمعتزلة والمشبهة، وكذلك بين المسلمين واليهـود والنـصارى في جـو مـن الحرية والتسامح.

وليس من الغريب في هذا الجو العلمي الخصب أن يتخذ ابـن العربـي (بيـت المقدس مباءة ويلتـزم فيـه القـراءة لا يقبـل علـى الـدنيا ولا يكلـم إنـسيًا ويواصـل الليـل بالنـهار، ولا تلهيه تجارة ولا تشغله صلة رحم ولا تقطعه مواصلة وليّ وتقاة عدو)[313].

ولم يزل على تلك الحال حتى اطلع على أغراض العلوم الثلاثة: علم الكلام وأصـول الفقه ومسائل الخلاف وقرأ (المدونة) بالطريقتين القيروانية في التنظير والتمثيل والعراقية على ما تقدم في معرفة الدليل[314].

وقد وصف ابن العربي ببعض التفصيل مشهدين مـن مشاهد القدس همـا محـراب داود بـبـاب الخليـل والمائـدة الـتي بطـور زيتـا. أمـا محـراب داود فهـو الاسـم الـذي أطلقـه

[307] - قانون التأويل، الأبحاث م 21، ص 80 ـ 81.

[308] - صاغان، قرية قرب مرو في خراسان.

[309] - زنجان مدينة شمال إيران (في خراسان القديمة)

[310] - المصدر نفسه، ص 82.

[311] - كازرون بين البحر وشيراز في خراسان

[312] - (نفح الطيب)، 42/2 و(احكام القرآن) ق 4، ص 1584 تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، 1958.

[313] - الأبحاث 22، ص 81.

[314] - المصدر نفسه، ص 82.

المسلمون على برج من أبراج قلعة القدس عند باب الخليل. وقد مر معنا أنه ليس لداود النبي علاقة بهذا المحراب سوى الاسم لأن القدس التي يفترض أن داود عاش فيها كانت محصورة في جبل أوفل أو الضهور، الكائن جنوب المسجد الأقصى، وهي لم تكن ممتدة إلى المنطقة المعروفة بباب الخليل. قال ابن العربي: (شاهدت محراب داود عليه السلام في بيت المقدس بناءً عظيماً من حجارة صلدة لا تؤثر فيها المعاول ويُرى له ثلاثة أسوار لأنه في السحاب أيام الشتاء كلها لا يظهر لارتفاع موضعه وارتفاعه في نفسه، له باب صغير ومدرجة عريضة، وفيه الدور والمساكن، وفي أعلاه المسجد، وفيه كوة شرقيةٌ إلى المسجد الأقصى في قدر الباب) إذ كتب ابن العربي هذا الكلام بعد احتلال الفرنجة القدس سنة 492هـ، 1099 فقد أشار إلى التجاء بعض جنود الفاطميين للقلعة وإعطاء الفرنجة لهم الأمان على أن يتوجهوا إلى مصر فقال (وفيه نجا من نجا من المسلمين حين دخلها الروم حتى صالحوا على أنفسهم بأن أسلموه إليهم على أن يسلموا في رقابهم وأموالهم فكان ذلك وتخلوا لهم عنه).

وروى ابن العربي بعد ذلك حادثةً شهدها في محراب داود بقوله: (ورأيت فيه غريبة الدهر وذلك أن ثائراً ثار به على واليه وامتنع فيه بالقوت، فحاصره وحاول قتاله بالنشاب مدة، والبلد على صغره مستمر في حالة، ما أغلقت لهذه الفتنة سوق، ولا سار إليها من العامة بشر، ولا برز للحال من المسجد الأقصى معتكف ولا انقطعت مناظرة ولا بطل التدريس، وإنما كانت العسكرية قد تفرقت فرقتين يقتتلون، وليس عند سائر الناس لذلك حركة، ولو كان بعض هذا في بلادنا لاضطرمت نار الحرب في البعيد والقريب ولانقطعت المعايش وغلقت الدكاكين وبطل التعامل، لكثرة فضولنا وقلة فضولهم)[315].

أما المائدة التي بطور زيتا، وهو جبل الطور أو الزيتون الذي يعتقد أن المسيح عليه السلام صعد منه إلى السماء فقد ذكرها ابن العربي في (أحكام القرآن) ونقل قوله فيها كذلك المقري في (نفح الطيب).

جاء في (أحكام القرآن) قول ابن العربي (شاهدت المائدة بطور زيتا[316] وأكلت عليها

---

[315] - المقتطفات الثلاثة الأخيرة من (احكام القران)، ق 4، ص 1586 [القاهرة 1958 . تحقيق علي محمد البجاوي].

[316] - في سورة المائدة: ﴿قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هي يستطيع ربك ان يُنزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين(112) قالوا نريد ان ناكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين(113) قال عيسى بن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين(114) قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني اعذبه عذاباً لا اعذبه احداً من العالمين(115)﴾. قال ابن عباس: فنزلت الملائكة بها عليها سبعة ارغفة وسبعة احوات فأكلوا منها حتى شبعوا. وفي

ليلاً ونهاراً وذكرت الله سبحانه وتعالى فيها سراً وجهاراً. وكان ارتفاعها أسفل من القامة بنحو شبر، وكان لها درجتان قبلياً، وكانت صخرة صلداء لا تؤثر فيها المعاول، فكان الناس يَقولون: مسخت صخرة إذ مسخ أربابها قردة وخنازير، والذي عندي أنّها كانت صخرة في الأصل قطعت من الأرض محلاً للمائدة النازلة من السماء، وكان ما حولها حجارة مثلها، وكان ما حولها محفوفاً بقصور، وقد نُحتت في ذلك الحجر الصلد بيوت أبوابها منها ومجالسها منها، مقطوعة فيها، وحناياها في جوانبها، وبيوت خدمتها قد صُوّرت من الحجر كما تُصوّر من الطين والخشب، فإذا دخلت في قصر من قصورهم ورددت الباب وجعلت من ورائه صخرة كثمن درهم لم يفتحه أهل الأرض للصوقه بالأرض، فإذا هَبّت الريحُ وحثَتَ تحته التراب لم يُفتح إلا بعد صب الماء تحته والإكثار منه حتى يسيل بالتراب، وينفرج مُنْفَرَجُ الباب، وقد مات بها قومٌ بهذه العلة. وقد كنت أخلو فيها كثيراً للدرس، ولكنّي كنت في كل حين أكنس حول الباب، مخافة ممّا جرى لغيري فيها، وقد شرحت أمرها في كتاب (ترتيب الرحلة) بأكثر من هذا[317] أيضاً.

اعتمدنا في هذا الجزء من الكتاب على ما نشره الدكتور إحسان عباس في مجلة الأبحاث البيروتية، كما استفدنا من دراسة الدكتور كامل جميل العسلي حول هذه الرحلة والمنشورة في كتابه (بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين) وملاحظاته القيمة عليها.

حديث: انزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً فأمروا ان لا يخونوا ولا يدخروا لغدٍ فخانوا وادخروا فمسخوا قردة وخنازير (تفسير الجلالين، المحلّي والسيوطي).

[317] - (احكام القران)، ق 2، ص 524، القاهرة 1957، وكذلك (نفح الطيب)، ج 2، ص 37

وقد علق الشيخ محمد صبري عابدين في رسالة كتبها إلى محب الدين الخطيب من القدس على كلام ابن العربي بقوله: وإلى هذا الزمان يوجد مكان في طور زيتا ملحق بمسجد الأسعدية بقرب الطور يقال له (مكان صعود المسيح عليه السلام)، وهو بلاطة سوداء بركانية، وربما كانت هي المائدة المشار إليها في كلام القاضي ابن العربي، وقد رايتها حين زيارتي لمسجد الأسعدية وفي المسجد كهف فيه قبور بعض العلماء والصالحين وهو منقوش نقشاً بديعاً. وربما كان هذا الكهف بما احتوى عليه من فجوات ونقوش هو المكان الذي رآه ابن العربي بجانب مائدة عيسى ولا استبعد ان هذا الكهف وما فيه من فجوات كان محلاً لاعتكاف بعض الزاهدين وربما كان هنالك ايضاً بعض البيوت المنحوتة طمست بإقامة ابنية جديدة في مكانها (العواصم من القواصم)، تحقيق محب الدين الخطيب (ص 16 - الهامش).

رحلة ابن العربي إلى المشرق

... وكان من حسن قضاء الله تعالى أني كنت في عنفوان الشباب وريّان الحداثة وعند ريعان النشأة رتب لي أبي رحمه الله حتى حذقت القرآن في العام التاسع، ثم قرن بي ثلاثة من المعلمين أحدهم لضبط القرآن بأحرفه السبعة التي جمعها الله فيه ونبه الصادق ﷺ عليها في قوله: (أنزل القرآن على سبعة أحرف). في تفصيل فيها، والثاني لعلم العربية، والثالث للتدريب في الحسبان. فلم يأت على ابتداء الأشد في العام السادس عشر من العدد إلا وأنا قد قرأت من أحرف القرآن نحواً من عشرة بما يتبعها من إدغام وإظهار وقصر ومد وتخفيف وشد وتحريك وتسكين وحذف وتتميم وترقيق وتفخيم. وقد جمعت من العربية فنوناً وتصرفت فيها تمريناً.

وقرأت من الأشعار جملة منها الستة وشعر الطائي والجعفي[318] ويسير من أشعار العرب والمحدثين. وقرأت في اللغة كتاب ثعلب و«إصلاح المنطق» و«الأمالي» وغيرها، وسمعت جملة من الحديث على المشيخة، وقرأت من علم الحسبان: المعاملات والجبر والفرائض عملاً. ثم كتاب أقليدس وما يليه إلى الشكل القطاع، وعدلت بالأزياج الثلاثة، ونظرت في الإسطرلاب وفي مسقط النقطة ونحوه. يتعاقب علي هؤلاء المعلمون من صلاة الصبح إلى صلاة العصر ثم ينصرفون عني وآخذ في الراحة إلى صبح اليوم الثاني، فلا تتركني نفسي فارغاً من مطالعة أو مذاكرة أو تعليق فائدة، وأنا بغرارة الشباب، أجمع من هذه الجمل ما يجمل والقدز يخبئها عندي للانتفاع بها في الرد على الملحدين والتمهيد لأصول الدين، ثم حالت هذه الحالة الخاصة بالاستحالة العامة عند دخول المرابطين بلدنا سنة أربع وثمانين وأربعمائة، ووقع علينا من تلك الحوادث ما كان مدة أسف فوقنا وصاب بأرضنا شؤبوب فتنة يا طال ما درت سحابة بنا فانصدع الالتئام، وتبدد ذلك النظام، وكان لنا حسرة[319] وللإسلام، ولم يكن بأرضنا المقام.

---

[318] - الطائي أبو تمام، والجعفي المتنبي

[319] - حسرة قد تقرأ «حيرة» ولا استبعد أن تكون اللفظة «خيرة» بمعنى «ما اختاره الله» أو «خيرة» فقد ثبت من بعد أن المرابطين تعهدوا حال الأندلس وأولوا نظامها المبدد، كما أن ابن العربي يرى في رحلته التي قضت بمفارقة الوطن مصدر خير له

ذكر الرحلة في طلب العلم

فدعت الضرورة إلى الرحلة، فخرجنا والأعداء يشتمون بنا، وآيات القرآن تنزع لنا[320]، وفي علم الباري جلت قدرته أنه ما مر علي يوم من الدهر كان أعجب عندي من يوم خروجي من بلدي ذاهباً إلى ربي. ولقد كنت مع غزارة السبيبة[321]، ونضارة الشبيبة، أحرص على طلب العلم في الآفاق، وأتمنى له حال الصفاق والآفاق[322]، وأرى أن التمكن من ذلك في جنب ذهاب الجاه والمال وبعد الأهل بتغير الحال ربح في التجارة، ونجح في المطلب. وكان الباعث على هذا السبب - مع هول الأمر - همة لزمت، وعزمة نجمت، ساقتها رحمة سبقت...

وسرنا حتى انتهينا إلى ديار مصر، فألفينا بها جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين والسلطان عليهم جرى[323]، وهم من الخمول في سرب خفي، ومن هجران الخلق بحيث لا يرشد إليهم جري[324]، لا ينبسون من العلم ببنت شفة، ولا ينتسب أحد منهم في فن إلى معرفة، بله الأدب. فنظرنا فيه مع قوم منهم أبو عبد الله محمد بن قاسم العثماني والسالمي وشعيب العبدري وآخرون سواهم ذكرناهم في موضعهم وسميناهم. وترددت في لقاء الناس بين أسفل وفوق، بما كنت فيه من المعارف من التوق، وناظرت الشيعة والقدرية، وتدربت في جمل من الجدل، ونظرت في نبذ علم الكلام، وتفطنت من سخافة هذه الطائفة بنفسي إلى معان تممها في النظر في المعارف والتمرس بالمشايخ: أمة غلب عليها سوء الاعتقاد، ونشأت من غير فطم بلبن العناد، واستولى اليأس منهم بما هم فيه من الفساد.

ذكر دخول بيت المقدس

ثم رحلنا عن ديار مصر إلى الشام وأملنا الإمام، فدخلنا الأرض المقدسة، وبلغنا المسجد الأقصى، فلاح لي بدر المعرفة فاستنزلت به أزيد من ثلاثة أعوام، وحين صليت

---

[320] - كذا في الأصل، ولعله ينظر في هذا إلى «المنزعة» أي الرأي والتدبير وقوة العزم والهمة

[321] - السبيبة: الخصلة من الشعر.

[322] - في حديث لقمان بن عاد حين وصف أخاه بقوله «صَفَّاقٌ أفَّاق» أي يضرب في آفاق الأرض مكتسباً. والصفاق: الكثير الأسفار والتصرف في التجارات أي اتمنى له أن يكون تاجراً صفاقاً يعقد الصفقات وأن يكون رحالة يجوب الآفاق

[323] - كان السلطان في مصر حين قدوم ابن العربي هو المستنصر الفاطمي (487) وتولى بعده المستعلي

[324] - الجري: على وزن الغني الوكيل والرسول والأجير والضامن، وهؤلاء هم أعوان الحاكم يرشدونه إلى من يخالفه في الأمر.

بالمسجد الأقصى فاتحة دخولي بها، عمدت إلى مدرسة الشافعية بباب الأسباط[325] فألفيت بها جماعة علمائهم يوم اجتماعهم للمناظرة عند شيخهم القاضي الرشيد يحيى[326] الذي كان استخلفه عليهم شيخنا الإمام الزاهد نصر بن إبراهيم النابلسي المقدسي[327] وهم يتناظرون على عادتهم، فكانت أول كلمة سمعتها من شيخ من علمائهم يقال له مجلي[328]: [الحرم][329] بقعة لو وقع القتل فيها لاستوفى القصاص بها، وكذلك إذا وقع في غيرها أصله الحل. فلم أفهم من كلامه حرفاً، ولا تحققت منه نكراً ولا عرفاً. وأقمت حتى انتهى المجلس فكررت راجعاً إلى منزلي وقد تأويني حرصي القديم، وغلبني على جدي في التحصيل والتعليم، فقلت لأبي رحمة الله عليه: إن كانت لك نية في الحج فامض لعزمك فإني لست برائم عن هذه البلدة حتى أعلم علم من فيها، واجعل ذلك دستوراً للعلم وسلماً إلى مراقيها، فساعدني حين رأى جدي. ونظرنا في الإقامة بها، وخزلنا أنفسنا عن صحبة كنا نظمنا بهم في المشي إلى الحجاز، إذ كانوا في غاية الانحفاز، ومشيت إلى شيخنا أبي بكر الفهري[330] رحمة الله عليه، وكان ملتزماً من المسجد الأقصى - طهره الله - بموضع يقال له الغوير، بين باب أسباط ومحراب زكريا عليه السلام، فلم نلقه به واقتصصنا أثرة إلى موضع منه يقال له السكينة فألفيناه بها فشاهدت هديه، وسمعت كلامه، فامتلأت عيني وأذني منه.

وأعلمه أبي بنيتي فأناب، وطالعه بعزيمتي فأجاب، وانفتح لي به إلى العلم كل باب، ونفعني الله في العلم والعمل، وتيسر لي على يديه أعظم أمل، فاتخذت بيت المقدس مباءة، والتزمت فيه القراءة، لا أقبل على دنيا ولا أكلم أنسياً، نواصل الليل بالنهار، وخصوصاً بقبة السلسلة[331] منه تطلع الشمس لي على الطور[332] وتغرب على محراب داود[333]

---

[325] - هو الباب الشرقي من سور المدينة

[326] - لعله يحيى بن علي المعروف بابن الصائغ وهو ممن صحب الشيخ نصر المقدسي (السبكي، طبقات الشافعية الكبرى 4، 324 الطبعة الأولى).

[327] - توفي سنة 490 بدمشق وكان من كبار الشافعية في عصره (طبقات السبكي 4، 27 والنجوم الزاهرة 5، 160).

[328] - هو مجلي بن جميع بن نجا المخزومي المتوفى سنة 550 (طبقات السبكي 4، 300 والسيوطي، حسن المحاضرة 1، 170ط مصر 1327 هـ وابن خلكان رقم، 528).

[329] - زيادة لتوضيح المعنى

[330] - هو الإمام ابو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي صاحب سراج الملوك توفي سنة 520 (انظر الفتح 2، 85 والحاشية).

[331] - القبة الصغيرة الواقعة إلى شرقي مسجد الصخرة وهي على مثاله

[332] - هو طور زيتا وفي اصطلاح اليوم، جبل الزيتون وتقع عليه قرية الطور وهو إلى الشرق من قبة السلسلة

فيخلفها البدر طالعاً وغارياً على الموضمين المكرمين، وأدخل إلى مدارس الحنفية والشافعية في كل يوم لحضور التناظر بين الطوائف لا تلهينا تجارة، ولا تشغلنا صلة رحم، ولا تقطعنا مواصلة ولي ولا تقاة عدوّ. فلم تمر بنا مدة يسيرة حتى حضر عندنا بالغوير ونحن نتناظر وفقيه الشافعية عطاء المقدسي. فسمعني وأنا أستدل على أن مد عجوة ودرهم بمدي عجوة لا يجوز. وقلت: الصفقة إذا جمعت مالي ربا ومعهما أو مع أحدهما ما يخالفه في القيمة، سواء كان من جنسه أو من غير جنسه، فإن ذلك لا يجوز لما فيه من التفاضل عند تقدير التقسيط والنظر والتقويم في المقابلة بين الأعواض، وهذا أصل عظيم في تحصيل مسائل الربا. فأعجب الفهري ذلك والتفت إلى عطاء وقال له: فيضت[334] فراخنا، فقال له عطاء: بل طارت، وذلك في الشهر الخامس أو السادس من ابتداء قراءتي. وكنا نفاوض الكرامية[335] والمعتزلة والمشبهة واليهود. وكان لليهود بها حبر منهم يقال له التستري لقنا فيهم ذكياً بطريقهم. وخاصمنا النصارى بها، وكانت البلاد لهم يأكرون[336] ضياعها ويلتزمون أديارها ويعمرون كنائسها. وقد حضرنا يوماً مجلساً عظيماً فيه الطوائف، وتكلم التستري الحبر اليهودي على دينه فقال: اتفقنا على أن موسى نبي مؤيد بالمعجزات معلم بالكلمات فمن ادعى أن غيره نبي فعليه الدليل، وأراد من طريق الجدال أن يرد الدليل في جهتنا حتى يطرد له المرام، وتمتد أطناب الكلام. فقال له الفهري: إن أردت بموسى الذي أيد بالمعجزات وعلم الكلمات وبشر بأحمد فقد اتفقنا عليه معكم وآمنا به وصدقناه، وإن أردت به موسى آخر فلا نعلم ما هو، فاستحسن ذلك الحاضرون وأطنبوا في الثناء عليه، وكانت نكتةً جدلية عقلية قوية، فبهت الخصم وانقضى الحكم.

ولم نزل على تلك السجية حتى اطلعت بفضل الله على أغراض العلوم الثلاثة: علم الكلام وأصول الفقه ومسائل الخلاف، التي هي عمدة الدين والطريق المهيع [أي المبين] إلى التدرب في معرفة أحكام المكلفين الحاوية للمسألة والدليل، والجامعة للتفريع والتعليل. وقرأنا «المدونة» بالطريقين: القيروانية في التنظير والتمثيل والعراقية على ما تقدم في

---

[333] - هنالك محراب داود في قلعة باب الخليل ومحراب داود في المسجد الأقصى (لد ع).

[334] - فيضت: شقت قشرة البيضة عنها.

[335] - الكرامية: اتباع محمد بن كرام (255 هـ) يرون ان الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب (الأشعري، مقالات الإسلاميين، 141 تحقيق الأستاذ ريتر 1963)، وابن كرام مدفون في القدس

[336] - في الأصل: ياكترون: يأكرون: يؤجرون الأرض مزارعة، وربما قرئت (يكترون)، والمعنيان متقاربان ولا يوجد بالعربية فعل على وزن يافعلون

معرفة الدليل. وفي أثناء ذلك، ورد علينا برسم زيارة الخليل صلوات الله عليه وبنيه للصلاة في المسجد الأقصى، جماعة من علماء خراسان كالزوزني[337] والصاغاني والزنجاني والقاضي الريحاني، ومن الطلبة جماعة كالبسكري وساتكين التركي، فلما سمعت كلامهم رأيت أنها درجة عالية، ومزية ثانية، وبز[338] من المعارف أغلى، ومنزلة في العلوم أعلى وكأني إذ سمعت كلامهم ما قرأت ما يقني، ولا يكفي في المطلوب ولا يغني.

وكان من غريب الاتفاق الإلهي أن المسألة التي سمعت أول دخولي بيت المقدس، ولم أفهم كلام القوم فيها، هي التي سمعت الصاغاني يتكلم عليها، فرأيت أنه أغوص على جواب كتاب الله واستنباط لا يدركه إلا من اصطفاه الله، وكذلك سمعت كلام الزوزني في مسائل منها قتل المسلم الذمي، فرأيته يقرطس على غرض الصاغاني، وينظرون إلى المطلوب من حقدة واحدة، فاستخرت الله تعالى على المشي إلى العراق، وصورة المسألة وتسطير الكلامين يكشف لنا قناع الطريقتين.

قال مجلي في أول مجلس: من قتل في الحرم أو في الحل فلجأ إلى الحرم قتل، لأن الحرم بقعة لو وقع القتل فيها لاستوفي القصاص بها، فكذلك وقع القتل في غيرها، أصله الحل. فقال له خصمه: لا يمتنع أن يقع القتل فيها وإذا قتل في غيرها ولجأ إليها عصمته كالصيد إذا لجأ إليها عصمته إذا لجأ إلى الحرم عصمته ولو صال على أحد عصمه، وهذا الفقه صحيح[339]، وذلك أن القاتل في غير الحرم إذا لجأ إليه فقد استعاذ بحرمته واستلاذ بأمنته وقد قال سبحانه: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ [آل عمران: 97]. وإذا قتل فيه هتك حرمته وضيع أمنته فكيف يعصمه؟

قال له مجلي: هذا الذي ذكرت لا يصح ولا يلزمني لأن الحرم لم يحترم لحرمة القاتل ولا لاعتقاده واحترامه وإنما احترم لحرمة الله سبحانه التي جعلها الله فيه وحكم له بها، فسواء أقام القاتل هذه الحرمة، أو لم يقمها لا يسقط شيء منها، فكان من حقك أن تعصمه على كل حال لقيام الحرمة لنفسه وحكم الله بها له. ويخالف الصيد، فإن الله حرم الصيد علينا ما دمنا حرماً أي محرمين أو كائنين في الحرم، لكن الصيد إذا صال على أحد لم يجز قتله ولكنه يدفعه عن نفسه وإن أدى إلى قتله، كالمسلم فإنه احترم بحرمة الإسلام وعصم دمه بالشهادتين، فإذا صال على أحد وجب دفعه وإن أدى ذلك إلى

---

(337) - انظر ما سجله ابن العربي من محاورة بين الزوزني وعطاء المقدسي في احكام القرآن: 61.

(338) - في الأصل: وبزاً.

(339) - في هامش الأصل: قوله وهذا الفقه صحيح من كلام الخصم لا من كلام ابن العربي

ذهاب نفسه. وأما قوله سبحانه ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ فإنما عنى به ما كان عليه الحرم في الجاهلية من تعظيم الكفار له وأمن اللائذ منهم به. ودار الكلام على هذا النحو.

ثم دخل علينا بمدرسة أبي عقبة الحنفية ببيت المقدس بعد ذلك بمدة الصاغاني في جبة راع وسلم واخترق الحلقة إلى أن قعد بإزاء الشيخ وعليه سيما الثروة وأسمال الرغبة[340]، ففطن الشيخ وهو القاضي [الريحاني][341] له فقال: ولعل الشيخ من أهل هذه الرفقة المسلوبة بالأمس، فقال له الصاغاني: نعم، فاسترجع له ودعا بالخير ثم قال له: وهو من أهل العلم والله أعلم فقال: إذا لجأ إلى الحرم لا يقتل، ففرح القاضي وقال: وكأن الشيخ حنفي! قال له: نعم، فسئل عن الدليل: فاستدل بقوله سبحانه ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾ [البقرة: 191] ثم قال: قرئ: لا تقاتلوهم وقرئ لا تقتلوهم؛ فإن قلنا: بقراءة من قرأ: ولا تقاتلوهم كان تنبيهاً، لأنه إذا نهى عن القتال. وهو سبب القتل. فالنهي عن المسبب الذي هو القتل أولى. قال له القاضي الريحاني: هذه الآية منسوخة بقول ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [التوبة: 5] قال له الصاغاني: القاضي أجل قدراً من أن يتكلم بهذا، وكيف ينسخ الخاص العام، وإنما ينسخ القول القول إذا عارضه، فبهت القاضي وهذا ما لا جواب عنه لأحد. وأعجب من بعض المغاربة من قرأ الأصول يحكي عن أبي حنيفة أن العام ينسخ الخاص إذا كان متأخراً عنه، وهذا ما قال به قط، ولولا أن أبا حنيفة ناقض فقال: لا يبايع في الحرم ولا يكلم ولا يجالس ولا يعان بمأكل ولا بمشرب ولا بملبس حتى يخرج عنه فتؤخذ العقوبة منه، ما قام له هذه المسألة أحد. إلى مناظرات كثيرة ومسائل من التحقيق عديدة.

وخرجت حينئذ إلى عسقلان متساحلاً، فألفيت بها بحر أدب يعب عبابه ويغب ميزابه، فأقمت بها لا أرتوي منه نحواً من ستة أشهر. فلما كان في بعض الأوان، كنت منقلباً عن بعض الإخوان إلى أن جيئت لقم[342] طريق وقد امتلأت بالناس وهم منقصفون[343] على جارية تغني في طاق، فوقفت أطلب أو أفكر في المشي على غيره وهي تترنم للتهامي[344]: [من الطويل]

---

[340] - كذا في الأصل، وانظر حكاية ورود الصاغاني في أحكام القرآن، 107

[341] - هذه اللفظة تثبت عند النقل من 141 أ إلى 141 ب وسقطت من المتن نفسه

[342] - اللقم: وسط الطريق

[343] - انقصفوا: تدافعوا وازدحموا

[344] - لم أجدها في ديوان التهامي، ونسبهما ابن خلكان في وفيات الأعيان 1: 429 (تحقيق الشيخ محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1948) للوزير أبي القاسم المغربي

أقـــول لهـــا والعـــيس تحـــدج للنـــوى ... أعدّي لفقدي ما استطعت من الصبر
ألـــيس مـــن الخـــسران أن لياليـــا ... تمـــر بـــلا نفـــع وتحـــسب مـــن عمـــري

فقلت: محمد، هذا بشهادة الله وحي صوبي وهاتف ديني، أنت المراد وعليك دار هذا التردد، ارحل من حينك إلى نيتك الأولى، وخذ بنفسك إلى ما هو الأحرى بك والأولى. وبادرت إلى داري وقلت لأبي: الرحيل، الرحيل، فليس هذا المنزل بمقيل، فسر بذلك إذا كان قبل يراودني عليه [142 أ] وأنا أمانعه عليه. ودخلنا البحر في الحين إلى عكا وانجدنا إلى طبرية وحوران وصمدنا[345] دمشق وفيها جماعة من العلماء، رأسهم شيخ الوقت سناء وسناً وعلماً وديناً نصر بن إبراهيم المقدسي النابلسي، وأصحابه متوافرون، وهم على سبيل أهل الأرض المقدسة سائرون، وفي مدرجتهم سالكون، وبتلك الدرجة متمكنون، فلزمنا شيخنا نصر بن إبراهيم في السماع وانتهينا إلى سماع كتاب البخاري بعد تقدم غيره عليه، وكان يقرأه علينا بلفظه لثقل سمعه».

---

(345) - صمدنا: قصدنا.

المراجع :

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة 1967- 1973.

- احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، جمع الشيخ الإمام العالم الفاضل الكامل الأديب الأريب المتقن المؤرخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي المعروف بالبشاري، نشرة دي خوييه، ليدن بهولندا، 1875م ونشرة ثانية كاملة في ليدن بالعربية ضمن سلسلة المكتبة الجغرافية العربية عام 1906م.

- الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، لعز الدين ابن شداد، الجزء الأول- القسم الأول، تحقيق دومونيك سورديل، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق 1953.

- الكتاب العزيزي، «المسالك والممالك» للحسن بن أحمد المهلبي، تحقيق، تيسير خلف، دار التكوين، دمشق، 2005.

- الكتاب المقدس.

- المرجع في الجولان، مجموعة مؤلفين، تحرير وإشراف تيسير خلف، مركز الشرق للدراسات، دمشق 2006.

- المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى للدكتور صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت 1963م.

- الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول 4 أجزاء، بيروت 1984م.

- الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي، الدكتور شاكر مصطفى، بيروت 1990.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، قدم له وعلق عليه محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1413 هـ 1992 م.

- بغية الطلب في تاريخ حلب، ابن العديم، تحقيق الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، دمشق 1989.

- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، للمستشرق إغناتي يوليانوفيتش كراتشكوفسكي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1965.

- بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، للدكتور كامل جميل العسلي، إصدار خاص، عمان 1991م.

- تاريخ الأنطاكي، يحيى بن سعيد الأنطاكي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، 1989.

- تقويم البلدان، لأبي الفداء، تحقيق المستشرقان الفرنسيان رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، المطبعة الملكية بباريس1840.

- تاريخ الزمان، لأبي الفرج جمال الدين ابن العبري، دار المشرق، بيروت 1991م.

- خطط الشام، محمد كرد علي، مكتبة النوري، دمشق ط 2، 1983.

- خطط دمشق، أكرم حسن العلبي، دار الطباع، دمشق 1989م.

- دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين، أحمد الإيبش ود. قتيبة الشهابي، وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية 1998.

- ذيل تاريخ دمشق أبي يعلى حمزة بن القلانسي، طبع في بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين 1908م.

- رحلة ناصر خسرو، ترجمة عربية، القاهرة، 1945.

- زبدة الحلب في تاريخ حلب، عمر بن أحمد ابن العديم، تحقيق سامي الدهان، دمشق المعهد الفرنسي 1951-1968.

- سفر نامة، ناصر خسرو علوي، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب، طبعة أولى، معهد اللغات الشرقية، القاهرة 1943م، وطبعة ثانية الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1993م.

- سفر نامة، ناصر خسرو قبادياني، طبعة فارسية، تحرير ليلى أكبري، طهران 1983م.

- كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة الشهير بكاتب جلبي، وهدية العارفين في الذيل على كشف الظنون للباباني، دار الفكر، دمشق 1981.

- لسان العرب، لابن منظور، طبعة دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت لبنان 1996 ميلادية، 1416 هجرية.

- مجلة الأبحاث البيروتية، المجلد 21 ديسمبير 1968م، (رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل) لأبي بكر بن العربي، تحقيق إحسان عباس ص 71- 85.

- مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الرابع- الجزء الأول، مايو، 1958، مطبعة مصر.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، لعلي بن الحسن المسعودي، طبعة دار المعرفة، بيروت 1982م.

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمري، الجزء الثالث، منشورات المجمع الثقافي في أبو ظبي 2003م.

- معجم البلدان، لياقوت الحموي، طبعة مكتبة الأسدي، طهران 1965م. وطبعات أخرى.

- نهاية الأرب في فنون الأدب، تأليف شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تحقيق مجموعة من أساتذة تاريخ العصور الوسطى في جامعة القاهرة، منهم محمد محمد أمين وسعيد عاشور والباز العريني ومحمد عبد الهادي شعيرة ومحمد ضياء الدين الريس وغيرهم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بدأ إصدار هذه السلسلة في بداية العشرينات وتواصل إلى أوائل التسعينات.

- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ابن خلكان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1948.

فهرس

مجلدات الموسوعة :

- المجلد الأول: وصف فلسطين أيام الفاطميين.
- المجلد الثاني: وصف فلسطين أيام الحروب الصليبية.
- المجلد الثالث: السياحات الصوفية والزيارات الدينية.
- المجلد الرابع: موانح الأنس برحلتي لوادي القدس.
- المجلد الخامس: الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية.
- المجلد السادس: وصف فلسطين أواخر أيام العثمانيين 1898- 1916.
- المجلد السابع: فلسطين في عشرينيات القرن العشرين.
- المجلد الثامن: فلسطين في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين.